

ثم عقر الجمل.. وترك وما ترك

تأليف

الحاج حسين الشاكري

مقدمة

« صفحة ٣ »

لنعمل معا تمهيدا لعصر الظهور الهدف من إحياء التراث الإسلامي، وإشاعة العقيدة الحقة لمذهب أهل البيت (عليهم السلام) في أوساط شبابنا الحائر بين تيارات الثقافات الغربية، الغربية المشبعة بسموم أفكار الصهيونية والصليبية والماركسية، بتخطيط من الماسونية العالمية.

وكذلك غزو الآراء الشاذة الضالة، من بعض المذاهب التي تدعي الإسلام زورا وبهتانا، بدفع من الاستعمار والماسونية العالمية، بهدف التخريب والتفرقة وقطع الجسور الممتدة بين المسلمين كافة، وتكفير مذهب شيعة أهل البيت (عليهم السلام) خاصة.. والغرض من تسليح

شبابنا الناهض للوقوف بوجه تلكم

التيارات المنحرفة الضالة، ليدافع عن مبادئه وعقيدته كما دافع عنها سلفنا الصالح وتحمل العنت والعذاب في سبيل ذلك، لا سيما شبابنا الذين قهرتهم الظروف العصبية والالتجاء إلى أحضان دول الكفر، لسد حاجاتهم البيولوجية، كالمستجير من الرمضاء بالنار.. وحتى لا تكون هجرتهم هجرة تعرب (١)، بل تكون هجرتهم إلى الله بقصد التبليغ والدعوة إلى دين الإسلام، ومذهب أهل البيت (عليهم السلام).

(١) التعرب: أي الهجرة من دار الإسلام إلى دار الكفر أينما صارت.

حسين الشاكري

الفتاح من شهر الصيام ١٤١٨

موقف الإمام من تولي الحكم

بعد مقتل عثمان، توجهت أنظار الثوار إلى الإمام علي يطلبون منه أن يلي الحكم، ولكنه أبى عليهم ذلك، لا لأنه لم يأنس من نفسه القوة على ولاية الحكم وتحمل تبعاته، خصوصاً بعد أن رأى المجتمع الإسلامي يتردى في هوة عميقة من الفوارق الاجتماعية والاقتصادية، بسبب

سياسة ولاية عثمان خلال مدة خلافته، ورأى أن التوجيهات الإسلامية ومفاهيمها العظيمة التي عمل لها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) طيلة حياته فقدت الكثير من فاعليتها في توجيه الناس، وأخذت تتضاءل بعد وفاته (صلى الله عليه وآله وسلم). وإنما صار الناس إلى واقعهم هذا لأنهم فقدوا الثقة بالقوة الحاكمة التي تهيمن عليهم، فراحوا يسعون إلى إقرار حقوقهم

« صفحة ٨ »

وصيانتها بأنفسهم، وهكذا انقطعت الصلة بينهم وبين الرموز المعنوية التي يجب أن تقود حياتهم، والسبيل إلى تلافي هذا الفساد هو إشعار الناس أن حكما صحيحا يهيمن عليهم، لتعود إلى الناس ثقتهم الزائلة بحكامهم، ولكن هذا لم يكن سهلا قريب المنال، فثمة طبقات مستغلة منتفعة ناشئة لا تسبغ مثل هذا، ولذلك فهي حرية بأن تقف في وجه كل منهج إصلاحي ومحاولة تطهيره.

إن فقد كان الإمام (عليه السلام) يدرك نتيجة لوعيه العميق للظروف الاجتماعية والنفسية التي كانت تجتاح المجتمع الإسلامي في ذلك الحين، ولأن المد الثوري الذي انتهى بالأمور إلى ما انتهت إليه بالنسبة إلى عثمان يقتضي عملا ثوريا يتناول دعائم المجتمع الإسلامي من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

ومن هنا كان رفض الإمام (عليه السلام) وامتناعه عن الاستجابة الفورية لضغط الجماهير والصحابة عليه بقبوله الخلافة، فقد أراد أن يضعهم أمام اختبار يكتشف به مدى استعدادهم لتحمل أسلوب الثورة في العمل، لنلا يروا فيما بعد أنه استغفلهم واستغل اندفاعهم الثوري حين يكتشفون صعوبة الشروط التي يجب أن

« صفحة ٩ »

يناضلوا لاستئصال الفساد الذي ثاروا عليه في ظلها (١).

ولهذا أجابهم الإمام (عليه السلام) بقوله: " دعوني والتمسوا غيري، فإننا مستقبلون أمرا له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول، وإن الآفاق قد أغمت، والمحجة قد تنكرت، واعلموا إنني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل، وعتب العاتب، وإن تركتموني فأنا كأحدكم، ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، وأنا لكم وزير خير لكم مني أمير " (٢).

ولكن الناس أصروا عليه أن يلي الحكم، فاستجاب لهم. وتسلم الإمام الحكم في مجتمع ورث الفساد بكل أبعاده، وكانت تنتظره مشاكل معقدة كثيرة على مختلف الأصعدة، فعالجهم الإمام (عليه السلام) بسياسته الثورية الجديدة التي قرر أن يتبعها من أجل تحقيق الأهداف التي قبل الحكم لأجلها.

وقد تناولت سياسته (عليه السلام) الثورية ثلاثة ميادين هي:

(١) راجع للتوسع ثورة الحسين / محمد مهدي شمس الدين: ٣٥ - ٣٨.

(٢) نهج البلاغة ١: ٢١٧.

« صفحة ١٠ »

١ - الميدان الحقوقي.

٢ - الميدان المالي.

٣ - الميدان الإداري.

وكانت أول مهامه (عليه السلام) إزالة صور الانحراف المختلفة التي طرأت على الحياة الإسلامية، وأن يعود بالأمة إلى أصالة المنهج الإلهي، غير أن أطماع الطامعين، وحسد

الحاسدين، وضغن الحاقدين حال دون ذلك، وخلقت للإمام (عليه السلام) المشاكل والحروب الثلاثة، الناكثين، القاسطين، والمارقين، كما أخبره بذلك الرسول الأمين، وإليك عزيزي القارئ وصف ذلك موجزا، فإنا لله وإنا إليه راجعون:

« صفحة ١١ »

بيعة الإمام أمير المؤمنين وما جرى بعدها

الحمد لله، والصلاة على رسوله الأكرم وآله الأطهار.

أشرح لكم بعض الوقائع التي حدثت لأمير المؤمنين (عليه السلام) في الفترة التي تلت قتل الخليفة الثالث، واستلامه (عليه السلام) مقاليد الخلافة الظاهرية إلى نكث الناكثين وتمردهم وإشعال فتنة الحرب المعروفة بمعركة الجمل.

نقم الناس على عثمان أشياء كثيرة أحدثها وابتدعها في مدة خلافته البالغة إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهرا، فضاقوا بها ذرعا، وثاروا عليه بعد أحداث ومجادلات كثيرة يطول شرحها أدت إلى مقتله، ولعل من أهم تلك الأسباب سوء تصرفه في إدارة أمور البلاد الإسلامية، وتوليته أعداء الإسلام من المنبوذين والمنفيين من أبناء عشيرته وتسليطهم على دماء

« صفحة ١٢ »

المسلمين وأعراضهم وأموالهم بصورة مستهترّة مفعجة كما وصف الحال أمير المؤمنين (عليه السلام) في خطبته المعروفة بـ " الشقشقية "، أنقل محل الحاجة منها حيث قال (عليه السلام

: " " ... إلى أن قام ثالث القوم نافجا حزنه (١)، بين نثيله ومعتلفه (٢)، وقام معه بنو أبيه يخضمون (٣) مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع إلى أن انتكث عليه قتله، وأجهز عليه عمله، وكبت (٤) به بطنته (٥) ! فما راعني إلا والناس كعرف الضبع (٦) إلي، ينثالون (٧) علي من كل جانب، حتى لقد وطئ الحسنان، وشق عطفائي (٨) مجتمعين حولي كربيضة

(١) أي رافعا لهما، وتقال للمتكبر.

(٢) النثيل: الروث وقذر الدواب.

المعتلف: موضع العلف.

(٣) الخضم: أكل الشيء الرطب.

(٤) من كبا به الجواد إذا سقط لوجهه.

(٥) البطنة: البطر والأشر والتخمة.

(٦) هو ما كثر على عنقها من الشعر، وأراد (ع) الكثرة والازدحام.

(٧) أي يتتابعون.

(٨) أي شق جانباه من الاصطكاك.

« صفحة ١٣ »

الغنم (١)، فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة ومقرت أخرى وقسط آخرون (٢) : كأنهم لم يسمعوا الله سبحانه يقول: (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا، والعاقبة للمتقين) (٣).

بلى ! والله لقد سمعوها ووعوها، ولكنهم حليت الدنيا في أعينهم، وراقهم زبرجها ! أما والذي
فلق الحبة، وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر (٤)، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله
على العلماء ألا يقاتروا (٥) على كظة (٦) ظالم، ولا سغب (٧) مظلوم،

(١) هي الطائفة الرابضة من الغنم.

(٢) الناكثة أصحاب الجمل، والمارقة أصحاب النهروان، والقاسطون - أي الجائرون - أصحاب
صفين.

(٣) القصص / ٨٣.

(٤) قيل: أراد بالحاضر هنا من حضر لبيعته.

(٥) أي يوافقوا مقرين.

(٦) هي ما يعتري الأكل من الثقل، والكرب عند امتلاء البطن بالطعام، وأراد استنثار الظالم
بالحقوق.

(٧) أي شدة الجوع، والمراد: غضب حقوقه.

« صفحة ١٤ »

لألقيت حبلها على غاريها (١)، ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي
من عفة عنز!

المبايعة بالخلافة

نعم، لقد انهال الناس عليه من كل جانب، وهم ينادون: ما نختار غيرك.
وترددوا إليه مرارا، وقالوا: والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك.
فقال (عليه السلام): " إذا كان لا بد من ذلك ففي المسجد، فإن بيعتي لا تكون خفية، ولا تكون إلا في المسجد ".
فخرج من بيته إلى المسجد، عليه قميص وعمامة خز، ونعلاه في يده، متوكنا على قوسه، فصعد المنبر وخطب الناس خطبة بليغة ثم قال: " اعلّموا أني إن أحببكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل، وعتب العاتب. .. " (٢).
وسارعت الأمة مذعنة لشروطه، ومدت إليه يد البيعة على

(١) الغارب: الكاهل.

(٢) نهج البلاغة: نص رقم ٩٢.

﴿ صفحة ١٥ ﴾

الطاعة، ولبي هو مطلبها ليواجه مسؤولياته القيادية في الأمة الإسلامية على الصعيد الفكري والعملية.
وقد كانت أول مهامه (عليه السلام) أن يزيل صور الانحراف المختلفة التي طرأت على الحياة الإسلامية، وأن يعود بالأمة إلى أصالة المنهج الإلهي.
وأول يد بايعه من الناس طلحة ثم الزبير وذلك طمعا منهما أن ينالا الحضوة لديه (عليه السلام) ويحصلوا على المناصب العليا، ويكسبا الأموال الطائلة، كما حصلوا على ذلك من عثمان أبان حكمه.

ثم بايعه المهاجرون والأنصار وسائر المسلمين، حتى أن بعض أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) تشائموا من تلك الصفقة التي هي أول يد امتدت لتبایعه، لأنها كانت يد مشلولة عضباء، هي يد طلحة المشؤومة.

ولما أراد طلحة والزبير أن يبايعا قال لهما أمير المؤمنين (عليه السلام): " إن أحببنا أن تبایعاني، وإن أحببنا بایعتكما ؟ " فقال: بل نبایعك.

وجاؤوا بسعد بن أبي وقاص، فقال له علي (عليه السلام): " بايع ".

قال: لا، حتى يبايع الناس، والله ما عليك مني بأس.

فقال

﴿ صفحة ١٦ ﴾

الإمام: " خلوا سبيله ".

وجاؤوا بعبد الله بن عمر فقالوا: بايع.

فقال: لا، حتى يبايع الناس، فقال (عليه السلام): " انتني بكفيل ".

قال: لا أرى كفيلًا.

فقال الأثرثر: دعني أضرب عنقه.

فقال الإمام: " دعوه، أنا كفيله ".

وكان الازدحام على الإمام بصورة مدهشة، وكاد الناس أن يركب بعضهم البعض من شدة الزحام، فبويع له بالخلافة يوم الجمعة لثمانية عشر من ذي الحجة سنة ٣٥ من الهجرة في بعض الروايات.

ومن ذلك اليوم نهض علي (عليه السلام) بأعباء الخلافة.

تقسيم بيت مال المسلمين بالسوية

وأول خطوة تقدم بها الإمام (عليه السلام) إلى العدالة هو تقسيم بيت المال بين المسلمين بالسوية، وذلك في اليوم الثاني من بيعته، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وكان مما قال: " أما بعد، لما قبض رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) استخلف الناس أبا بكر، ثم استخلف أبو بكر عمر، فعمل بطريقته، ثم جعلها شورى بين ستة، فأفضى الأمر إلى عثمان، فعمل ما أنكرتم وعرفتم، ثم حصر، ثم قتل، ثم جنتموني فطلبتم إلي، وإنما أنا

﴿ صفحة ١٧ ﴾

رجل منكم، لي ما لكم، وعلي ما عليكم. .. " إلى آخر خطبته المعروفة. ثم التفت يمينا وشمالا فقال: " ألا لا يقولن رجل منكم قد غمرتهم الدنيا فاتخذوا العقار، وفجروا الأنهار، وركبوا الخيول الفارحة، واتخذوا الوصائف الروقة، فصار ذلك عليهم عارا وشنارا إذ منعتم ما كانوا يخوضون فيه، وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعملون، فينقمون ذلك ويستنكرون، يقولون: حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا. وأيما رجل استجاب لله ورسوله، فصدق ملتنا، ودخل في ديننا، واستقبل قبلتنا، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده، فأنتم عباد الله والمال مال الله، يقسم بينكم بالسوية، لا فضل لأحد على أحد وللمتقين غدا أحسن الجزاء وأفضل الثواب. وإذا كان غدا - إن شاء الله - فاغدوا علينا، فإن عندنا مالا نقسمه فيكم، ولا يتخلفن أحد منكم، عربي ولا عجمي، كان من أهل العطاء أو لم يكن، إذا كان مسلما حرا إلا حضر، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم ".

﴿ صفحة ١٨ ﴾

وعن عمار وابن عباس قالوا: إنه (عليه السلام) لما صعد المنبر قال لنا: " قوموا فتخللوا الصفوف، ونادوا: هل من كاره؟ ". فتصارخ الناس من كل جانب: اللهم قد رضينا وسلمنا وأطعنا رسولك وابن عمه. فقال (عليه السلام): قم يا عمار إلى بيت المال فاعط الناس، ثلاثة دنانير لكل إنسان، وادفع لي ثلاث دنانير، فمضى عمار وأبو الهيثم وجماعة من المسلمين إلى بيت المال. ومضى أمير المؤمنين إلى مسجد قباء يصلي فيه، فوجدوا ثلاثمائة ألف دينار، ووجدوا الناس مائة ألف، فقال عمار: جاء والله الحق من ربكم، والله ما علم بالمال ولا بالناس، وإن هذه الآية وجبت عليكم بها طاعة الرجل. فأخذ الناس ذلك القسم: حتى بلغوا طلحة والزبير وعبد الله بن عمر وبني أمية فأمسكوا أيديهم وامتنعوا عن القبول، وقالوا: هذا منكم، أو من صاحبكم؟ فقالوا: هذا أمره، لا يعمل إلا بأمره. قالوا: استأذنوا لنا عليه. قالوا: ما عليه إذن. وبعد الأخذ والرد فقال (عليه السلام): " وهذا كتاب الله فانظروا ما

﴿ صفحة ١٩ ﴾

لكم من حق فخذوه ". قالوا: فسابقتنا، قال: " أنتما أسبق مني؟ ". قالوا: لا، فجهادنا، قال: " أعظم من جهادي؟ ". قالوا: لا، قال: " فوالله ما أنا في هذا المال وأجيري إلا منزلة سواء ". وأول شيء كرهه بعض الناس من علي أمير المؤمنين بعد خلافته تقسيمه العطاء بالسوية، فقد قال سهل بن حنيف: يا أمير المؤمنين! هذا غلامي بالأمس، وقد أعتقته اليوم! فقال (عليه السلام): " نعطيه كما نعطيك "!! وأمر الإمام أن يبدأوا في العطاء بالمهاجرين، ثم يثنون بالأنصار، ثم من حضر من الناس كلهم، الأحمر والأسود. تخلف عن هذه القسمة يومئذ طلحة والزبير وعبد الله بن عمر وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم ورجال من قريش، ومن هنا بدأت التفرقة، ونشب الخلاف، وتولدت الفتنة. وأقبل هؤلاء وجلسوا في ناحية من المسجد، ولم

يجلسوا عند الإمام (عليه السلام) ، ثم قام الوليد بن عقبة فجاء إلى الإمام، فقال: يا أبا الحسن،
إنك قد وترتنا جميعا، أما أنا فقتلت أبي يوم بدر

﴿ صفحة ٢٠ ﴾

صبرا، وخذلت أخي يوم الدار بالأمس. وأما سعيد فقتلت أباه يوم بدر في الحرب، وكان ثور
قريش. وأما مروان فسخفت أباه عند عثمان إذ ضمه إليه، ونحن إخوانك ونظراؤك من بني عبد
مناف، ونحن نبايعك اليوم على أن تضع عنا ما أصبناه من المال في يوم عثمان، وأن تقتل قتلة
عثمان، وإنا إن خفناك تركناك والتحقنا بالشام. فقال (عليه السلام): " أما ما ذكرتم من وتري
إياكم فالحق وتركم، وأما وضعي عنكم ما أصبتم، فليس لي أن أضع حق الله عنكم ولا عن
غيركم، وأما قتلة عثمان فلو لزمني قتلهم اليوم لقتلتهم أمس، ولكن لكم علي إن خفتوني أن
أؤمنكم، وإن خفتكم أن أسيركم ". فقام الوليد إلى أصحابه فحدثهم، فافترقوا على إظهار العداوة
وإشاعة الخلاف، فلما انتهى عمار وعبد الله بن رافع وغيرهما من تقسيم المال بين الناس
بالسوية أخذ علي (عليه السلام) مكتبته ومسماته، ثم انطلق إلى بئر الملك فعمل فيها، فأخذ
الناس ذلك القسم، حتى بلغوا الزبير وطلحة وعبد الله بن عمر فأمسكوا أيديهم، وامتنعوا عن
القبول وقالوا: هذا منكم، أو من

﴿ صفحة ٢١ ﴾

صاحبكم ؟ فقالوا: هذا أمره، لا نعمل إلا بأمره. قالوا: استأذنوا لنا عليه. قالوا: ما عليه آذن،
هو في بئر الملك يعمل. ركبوا دوابهم حتى جاؤوا إليه، فوجدوه في الشمس ومعه أجير له،

فقالوا: إن الشمس حارة، فارتفع معنا إلى الظل. فارتفع معهم إلى الظل، فقالوا له: لنا قرابة من نبي الله، وسابقة جهاد، وإنك أعطيتنا بالسوية، ولم يكن عمر ولا عثمان يعطوننا بالسوية، كانوا يفضلوننا على غيرنا. فقال (عليه السلام): " فهذا قسم أبي بكر، وإلا تدعوا أبا بكر وغيره، وهذا كتاب الله فانظروا ما لكم من حق فخذوه ". قالوا: فسابقتنا. قال: " أنتمأ أسبق مني ؟ ". قالوا: لا، فقرابتنا من النبي. قال: أقرب من قرابتي ؟ قالوا: لا، فجهادنا. قال: أعظم من جهادي ؟ قالوا: لا.

﴿ صفحة ٢٢ ﴾

قال: " فوالله ما أنا في هذا المال وأجيري إلا منزلة سواء ".

احتجاج طلحة والزبير

وفي اليوم الثاني جاء طلحة والزبير، وجلسا في ناحية المسجد، وجاء مروان بن الحكم، وسعيد بن العاص، و عبد الله بن الزبير، وجلسوا عندهما، وكان هؤلاء قد امتنعوا عن أخذ قسمتهم من بيت المال وجعلوا يطعنون في علي أمير المؤمنين (عليه السلام)، والتفت عمار بن ياسر إلى أصحابه وهم جلوس عنده في ناحية أخرى من المسجد، فقال: هلموا إلى هؤلاء النفر من إخوانكم، فإنه قد بلغنا عنهم، ورأينا ما نكره من الخلاف والظعن لإمامهم، وقد دخل أهل الجفاء بينهم وبين الزبير والأعسر العاق. يعني طلحة. فقام عمار ومن معه حتى جلسوا عندهم فتكلم أبو الهيثم وقال: إن لكم قدما في الإسلام، وسابقة، وقرابة من أمير المؤمنين، وقد بلغنا عنكم ظعن وسخط لأمير المؤمنين، فإن يكن أمر لكما خاصة، فعاتبا ابن عمتكما وإمامكما، وإن تكن النصيحة للمسلمين، فلا تؤخره عنه، ونحن عون لكما، فقد

« صفحة ٢٣ »

علمنا أن بني أمية لن تنصحكما أبدا، وقد عرفتما عداوتهم لكما، وقد شركتما في دم عثمان، وملأتما. فسكت الزبير، وصاح طلحة - بصوت عال - : افزعوا جميعا مما تقولون، فإني قد عرفت أن في كل واحد منكم خطبه. فتدخل عمار وأبى النسيحة، وتقدم ابن الزبير وتكلم بكلام خشن، فأمر عمار بإخراج ابن الزبير من المسجد، فقام الزبير منزعا من هذا العمل، وخرج من المسجد. فقال عمار: ولو لم يبق أحد إلا خالف علي بن أبي طالب لما خالفته، ولا زالت يدي مع يده، وذلك أن عليا لم يزل مع الحق منذ بعث الله نبيه محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، فإني أشهد أن لا ينبغي لأحد أن يفضل عليه أحدا. فقام عمار وجماعته وجاؤوا إلى أمير المؤمنين، وأخبروه بانشقاق القوم وأنهم كرهوا الأسوة والقسمة بالسوية، إلى آخر كلامهم. فخرج الإمام من داره ودخل المسجد وصعد المنبر وقال بعد الحمد والثناء على الله: " يا معشر المهاجرين والأنصار ! أتمنون على الله ورسوله بإسلامكم ؟ بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان

« صفحة ٢٤ »

إن كنتم صادقين، أنا أبو الحسن - وكان يقولها إذا غضب - ألا إن هذه الدنيا التي تتمنونها، وترغبون فيها، وأصبحت تغضبكم وترضيكم ليست بداركم ولا منزلكم الذي خلقتم له، فلا تغرنكم. وأما هذا الفئ (المال) فليس لأحد أثرة، فقد فرغ الله من قسمته، وهو مال الله، وأنتم عباد الله المسلمون، وهذا كتاب الله، به أقررنا وله أسلمنا، وعهد نبينا بين أظهرنا، فمن لم يرض فليتول كيف شاء، فإن العامل بطاعة الله الحاكم بحكم الله لا وحشة عليه ". ثم نزل الإمام

عن المنبر وصلى ركعتين، ثم بعث بعمار بن ياسر إلى طلحة والزبير وهما في ناحية المسجد، فدعاهما، فجاء طلحة والزبير وجلسا عند أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال الإمام: " نشدتكما الله، هل جئتماني طائعين للبيعة ودعوتاني إليها وأنا كاره لها؟ ". فقال الرجلان: نعم. فقال الإمام: " غير مجبورين ولا معسورين، فأسلمتما لي بيعتكما، وأعطيتماني عهدكما؟ ". فقال الرجلان: نعم.

« صفحة ٢٥ »

فقال الإمام: " فما دعاكما إلى ما أرى؟ " فقال الرجلان: أعطيناك بيعتنا على أن لا تقضي في الأمور، ولا تقطعها دوننا، وأن تستشيرنا في كل أمر، ولا تستبد بذلك علينا، ولنا من الفضل على غيرنا ما قد علمت، فأنت تقسم القسم وتقطع الأمور وتقضي الحكم بغير مشاورتنا ولا علمنا. فقال الإمام - غاضبا -: " لقد نقمتما يسيرا، وأرجأتما كثيرا، فاستغفرا الله يغفر لكما، ألا تخبراني، أذفعتكما عن حق واجب لكما فظلمتكما إياه؟ ". فقال الرجلان: معاذ الله. فقال الإمام: " فهل استأثرت من هذا المال بشئ؟ ". فقال الرجلان: معاذ الله. فقال الإمام: " أفوق حكم أو حد من المسلمين فجهلته أو ضعفت فيه؟ ". فقال الرجلان: معاذ الله. فقال الإمام: " فما الذي كرهتما من أمري حتى رأيتما خلافي؟ ". فقال الرجلان: خلافك عمر بن الخطاب في القسم، إنك جعلت حقنا في القسم كحق غيرنا، وسويت بيننا وبين من

« صفحة ٢٦ »

لا يماثلنا فيما أفاء الله تعالى بأسيافنا ورماحنا، وأوجفنا عليه بخيلنا ورجلنا، وظهرت عليه دعوتنا، وأخذنا قسرا وقهرا ممن لا يرى الإسلام إلا كرها. فقال الإمام (عليه السلام): " أما ما

ذكرتماه من الاستشارة بكما، فوالله ما كانت لي في الولاية رغبة، ولكنكم دعوتموني إليها وجعلتموني عليها، فخفت أن أردكم فتختلف الأمة، فلما أفضت إلي نظرت في كتاب الله وسنة رسوله فأمضيت ما دلاني عليه واتبعته، ولم أحتج إلى رأيكما فيه ولا رأي غيركما، ولو وقع حكم ليس في كتاب الله ببيانه ولا في السنة برهانه واحتيج إلى المشاورة لشاررتكما فيه. وأما القسم والأسوة: فإن ذلك أمر لم أحكم فيه بادئ بدء، وقد وجدت أنا وأنتما رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يحكم بذلك، وكتاب الله ناطق به، وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. وأما قولكما: " جعلت فينا وأسيافنا ورماحنا سواء بيننا وبين غيرنا " فقديما سبق إلى الإسلام قوم، ونصره بسيوفهم ورماحهم، فلا فضلهم رسول الله بالقسم، ولا أثر بالسبق، والله

﴿ صفحة ٢٧ ﴾

سبحانه موف السابق والمجاهد يوم القيامة بأعمالهم، وليس لكما، والله، عندي ولا لغيركما إلا هذا. أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق وألهمنا وإياكم الصبر، رحم الله امرئ رأى حقا فأعان عليه، ورأى جورا فرده، وكان عوننا للحق على من خالفه ". قام طلحة والزبير وانصرفا من عند أمير المؤمنين (عليه السلام) وهما مغضبان ساخطان، وقد عرفا ما كان غلب في ظنهما من رأيه، وبعد يومين جاء واستأذنا عليه فأذن لهما. فقالا: يا أمير المؤمنين! قد عرفت حال هذه الأزمنة وما نحن فيه من الشدة، وقد جنناك لتدفع إلينا شيئا، نصلح به أحوالنا، ونقضي به حقوقا علينا. فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): " قد عرفتما مالي بـ " ينبع " فإن شئتما كتبت لكما منه ما تيسر ". فقالا: لا حاجة لنا في مالك بـ " ينبع ". فقال أمير المؤمنين: " ما أصنع ؟ ". فقالا: أعطنا من بيت المال شيئا لنا فيه كفاية. فقال أمير المؤمنين: " سبحان الله، وأي يد لي في بيت مال

المسلمين وأنا خازنهم وأمين لهم ؟ ! فإن شنتما رقيتما المنبر وسألتما ذلك من الناس ما شنتما، فإن أذنوا فيه فعلت، وأنى لي بذلك وهو لكافة المسلمين شاهدهم وغائبهم ؟ ! ولكني أبدي لكما عذرا " . فقالا: ما كنا بالذي نكلف ذلك، ولو كلفناك لما أجابك المسلمون. فقال أمير المؤمنين: " فما أصنع ؟ " . فقالا: سمعنا ما عندك.

خروج طلحة والزبير ضد الإمام

ثم خرجا من دار أمير المؤمنين، وقد ينسا من بيت المال، فجعلا يفكران في كيفية الخروج إلى مكة والالتحاق بعائشة، إلى أن صار رأيهما على هذا، وجاءا إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) وقت خلوته وقالا: قد جنناك نستأذنك للخروج في العمرة، لأننا بعيدا العهد بها، فأذن لنا فيها. فنظر الإمام في وجهيهما، وقرأ الغدر من فلتات لسانهما ودوران عيونهما، وقد احمر وجهه وبيان الغضب فيه فقال:

" والله ما تريدان العمرة، ولكنكما تريدان الغدرة، وإنما تريدان البصرة " . فقال الرجلان: اللهم غفرا، ما نريد إلا العمرة. فقال الإمام: " احلفا لي بالله العظيم أنكما لا تفسدان علي أمر المسلمين، ولا تنكثان لي ببيعة ولا تسعيان في فتنة " . فحلفا بالأيمان المؤكدة فيما استحلفهما عليه من ذلك. فخرج الرجلان من عنده، فلقيهما ابن عباس سائلا: أذن لكما الإمام ؟ فقالا: نعم.

ودخل ابن عباس على الإمام فابتدأه الإمام (عليه السلام) قائلا: " يا بن عباس، أعندك الخبر؟
إنهما استأذنا في العمرة، فأذنت لهما بعد أو أوثقت منهما بالأيمان أن لا يغدرا، ولا ينكتا لي
بيعة، ولا يحدثا فسادا، ولا يسعيان في فتنة، فحلفا بالأيمان ". وبعد هنيهة قال: " والله يا بن
عباس، إنني لأعلم أنهما ما قصدا إلا الفتنة، فكأنني بهما وقد صارا إلى مكة ليسعيا إلى حربي،
وإن يعلى بن منية الخائن الفاجر قد حمل أموال العراق وفارس لينفقها في ذلك، وسيفسد هذان
الرجلان علي أمري، ويسفكا دماء شيعتي وأنصاري ".

﴿ صفحة ٣٠ ﴾

فقال ابن عباس: إذا كان عندك يا أمير المؤمنين معلوما، فلم أذنت لهما؟ هلا حبستهما،
وأوثقتهما بالحديد وكفيت المؤمنين شرهما؟ فقال الإمام متعجبا: " يا بن عباس، أتأمرني
بالظلم ابتداء؟ وبالسيئة قبل الحسنة؟ وأعاقب على الظنة والتهمة؟ وأخذ بالفعل قبل كونه؟
كلا والله، لا عدلت عما أخذ الله علي من الحكم والعدل. يا بن عباس! إنني أذنت لهما وأعرف
ما يكون منهما، ولكني استظهرت بالله عليهما، والله لأقتلنهما ولأخيبن ظنهما، ولا يلقيان من
الأمر مناهما، وإن الله يأخذهما بظلمهما لي، ونكتنهما ببيعتي، وبغيهما علي ". ثم خرج الرجلان
من المدينة متوجهين إلى مكة، فوجدا بني أمية قد أحاطوا بعائشة، ولحق بها جماعة من
منافقي قريش، ولحق بها عبد الله بن عمر بن الخطاب وأخوه عبيد الله، ومروان بن الحكم،
وأولاد عثمان، وعبيدة وخاصته من بني أمية، وجعلوا عائشة ملجأ لهم فيما دبروه من كيد
للإمام (عليه السلام)، وصار كل من يبغض عليا، أو يكرهه، أو يحسده، أو يخاف منه

﴿ صفحة ٣١ ﴾

استيفاء الحقوق منه، يلتحق بهذه الجماعة. وعائشة تنعى عثمان وتبرأ من قاتله، وتعرض الناس على عداوة الإمام، وتظهر بأن علياً قتل عثمان ظلماً.

المتخلفون عن بيعته

في مروج الذهب: قعد عن بيعته - أي الإمام - جماعة عثمانية - الهوى - وجماعة لم يروا إلى الخروج من الأمر. وفي أسد الغابة: تخلف عن بيعته جماعة من الصحابة، فلم يلزمهم - الإمام - بالبيعة، وسئل علي (عليه السلام) عن تخلف عن بيعته، فقال: " أولئك قعدوا عن الحق ولم ينصروا الباطل ". روى الطبري بسنده عن عبد الله بن الحسن، قال: بايعت الأنصار علياً إلا نفرًا منهم وعدهم وقال: كانوا عثمانية - الرأي والهوى - ونحن نذكر أسماء المتخلفين، حسب ما ذكره هؤلاء وهم: حسان بن ثابت (١)، وكعب بن مالك (وكانا شاعرين)،

(١) على رغم إلقاء قصيدته العصماء يوم غدِير خم أمام رسول الله (ص) عندما أعلن الولاية لعلي (ع) بقوله:

يناديهم يوم الغدير نبيهم * ألا فأسمع بالنبى مناديا

﴿ صفحة ٣٢ ﴾

ومسلمة بن مخلد (أو خالد)، وأبو سعيد الخدري، ومحمد بن مسلمة، وحليف بن الأشهل، والنعمان بن بشير، وزيد بن ثابت، ورافع بن خديج، وفضالة بن عبيد، وكعب بن عجرة، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وصهيب بن سنان، وسلمة بن وقش، وأسامة بن زيد، وعبد

الله بن سلام، وقدامة ابن مظعون، والمغيرة بن شعبة الثقفي، وهبان بن صيفي، وعبد الله بن الحسن فيما رواه عنه الطبري في العشرة الأولى أنهم كانوا عثماني الهوى، غير الذين هربوا إلى مكة من بني أمية ومن شابعهم بعد مقتل عثمان، أو الذين التحقوا بمعاوية في الشام. وقال: أما حسان فكان شاعرا لا يبالي ما صنع. وأما زيد بن ثابت فولاه عثمان الديوان وبيت المال، فلما حصر عثمان قال: يا معشر الأنصار كونوا أنصار الله مرتين. فقال أبو أيوب: ما تنصره إلا لأنه أكثر لك من العبدان.

﴿ صفحة ٣٣ ﴾

وأما كعب بن مالك فاستعمله عثمان على صدقة مزينة وترك ما أخذ منهم له. وقال المسعودي: ويبيع ابن عمر يزيد بعد ذلك، والحجاج لعبد الملك بن مروان. وقال ابن الأثير: فأما النعمان بن بشير، فإنه أخذ أصابع نائلة بنت القرافصة امرأة عثمان التي قطعت وقميص عثمان الذي قتل فيه وهرب فلحق بالشام، فكان معاوية يعلق قميص عثمان وفيه الأصابع فإذا رأى ذلك أهل الشام ازدادوا غيضا وجدوا في أمرهم، ثم يرفعه إذا أحس منهم بفتور، يقول له عمرو بن العاص حرك لها جوارها تحن، فيعلقهما و صار بذلك مثلا " قميص عثمان ". وهرب بنو أمية فلحقوا بمكة. وخرج طلحة والزبير من المدينة متوجهين إلى مكة بعد أن استجازوا الإمام للعمرة، فوجدا بني أمية قد أحاطوا بعائشة ولحق بهم جماعة من منافقي قريش، ولحق بهم عبد الله بن عمر وأخوه عبيد الله، ومروان بن الحكم، وأولاد عثمان، وعبيده وخاصته من بني أمية، وكل من يبغض عليا أو يكرهه، أو يحسده وجعلوا عائشة ملجأ لهم فيما

﴿ صفحة ٣٤ ﴾

يدبروه من كيد للإمام (عليه السلام). وهكذا جهزوا جيشا بقيادة صاحبة الجمل، وطلحة والزبير، وزحفوا إلى البصرة.

وصول عائشة إلى مكة

وكانت عائشة لما وصلت إلى مكة، وأدت مناسك الحج، بلغها خبر قتل عثمان فاستبشرت وقالت للناعي: قتلته أعماله، إنه أحرق كتاب الله، وأمات سنة رسول الله فقتله، ومن بايع الناس؟ فقال الناعي: لم أبرح من المدينة حتى أخذ طلحة نعاجا لعثمان، وعمل مفاتيح لأبواب بيت المال، ولا شك أن الناس بايعوه. فقالت عائشة وهي فرحة: بعدا لنعتل وسحقا! إيه ذا الأصبع! إيه أبا شبل! إيه ابن عم! لله أبوك يا طلحة، أما إنهم وجدوا طلحة لها كفوا، لكأني أنظر إلى إصبعة وهو يبائع احتوها بلا بل دغدغوها! وجدوك لها محسنا، ولها كافيا، شدوا رحلي فقد قضيت عمري، لأتوجه إلى منزلي.

﴿ صفحة ٣٥ ﴾

فسارت عائشة حتى إذا وصلت إلى موضع يقال له (شرقاء) لقيها رجل يقال له: عبيد بن أم كلاب، فسألته عائشة: ما الخبر؟ فقال الرجل: قتل عثمان. فقالت عائشة: قتل نعتل! أخبرني عن قصته وكيف كان أمره؟ فقال الرجل: لما أحاط الناس بالدار، رأيت طلحة قد غلب على الأمر، واتخذ مفاتيح على بيوت الأموال والخزائن، وتهيا لبيبيع له، فلما قتل عثمان مال الناس إلى علي بن أبي طالب، ولم يعدلوا به طلحة ولا غيره، وخرجوا في طلب علي، يقدمهم الأشتر ومحمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر، حتى إذا أتوا عليا وهو في بيت سكن فيه قالوا له: بايعنا

على الطاعة لك. وكان علي يتفكر ساعة، فقال الأشر: يا علي ! إن الناس لا يعدلون بك غيرك فبايع قبل أن يختلف الناس. وكان في الجماعة طلحة والزبير، فظننت أن سيكون بين طلحة والزبير وعلي بن أبي طالب كلام قبل ذلك، فقام طلحة والزبير فبايعا، وأنا أرى أيديهما على يد علي يصفقانهما ببيعتة، ثم صعد علي بن أبي طالب المنبر، فتكلم بكلام لا أحفظه إلا أن الناس بايعوه يومئذ

﴿ صفحة ٣٦ ﴾

على المنبر من الغد، فلما كان اليوم الثالث خرجت ولا أعلم. فقالت عائشة: لوددت أن السماء انطبقت على الأرض إن تم هذا، انظر ماذا تقول ؟ ! فقال الرجل: هو ما قلت لك يا أم المؤمنين. فقالت عائشة: إنا لله، أكره والله هذا الرجل، وغضب علي بن أبي طالب أمرهم، وقتل خليفة الله مظلوما، ردوا بغالي، ردوا بغالي.

فقال الرجل: ما شأنك يا أم المؤمنين ؟ والله، ما أعرف بين لابتيها أحدا أولى بها من علي، ولا أحق، ولا أرى له نظيرا فلماذا تكرهينه ؟ فسكتت عائشة ولم ترد جوابا، وعزمت على الرجوع إلى مكة. وفي طريقها رآها قيس بن حازم فقالت عائشة تخاطب نفسها: قتلوا ابن عفان مظلوما. فقال قيس: يا أم المؤمنين ! ألم أسمعك أنفا تقولين: أبعد الله، وقد رأيتك قبل أشد الناس عليه، وأقبحهم فيه قولا ؟ ! فقالت عائشة: لقد كان ذلك، ولكن نظرت في أمره فرأيتهم استتابوه حتى إذا تركوه كالفضة البيضاء أتوه صائما محرما في شهر

﴿ صفحة ٣٧ ﴾

حرام فقتلوه. فقال عبيد بن أم كلاب:

فمنك البداء ومنك الغير * ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام * وقلت لنا: إنه قد كفر
فهبنا أطعناك في قتله * وقاتله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا * ولم تنكسف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا تدرأ * يزيل الشبا ويقيم الصعر
ويلبس للحرب أوزارها * وما من وقي مثل من قد عثر

عائشة تطالب بدم عثمان

وصلت عائشة إلى مكة، وجاءها رجل يقال له: يعلى بن منية، وكان من بني أمية وشيعة عثمان، وقال لها: قد قتل خليفتك الذي كنت تحرضين على قتله. فقالت عائشة: برئت إلى الله ممن قتله. فقال الرجل: الآن أظهري البراءة ثانيا من قتله. فخرجت إلى المسجد، فجعلت تتبرأ ممن قتل عثمان، وهنا وصل خبر عائشة إلى طلحة والزبير وهما في المدينة، فكتبا إليها

« صفحة ٣٨ »

كتبا مع ابن أختها عبد الله بن الزبير، وكان مضمون الكتاب " خذلي الناس عن بيعة علي، وأظهري الطلب بدم عثمان ". قرأت عائشة ذلك الكتاب، وكشفت عما في ضميرها، وجعلت تطلب بدم عثمان، وجاءت ووقفت عند الحجر الأسود وقالت: أيها الناس ! إن الغوغاء " السفلة " من أهل الأمصار وأهل المياد وعبيد أهل المدينة، اجتمعوا على هذا الرجل فقتلوه ظلما بالأمس، ونقموا عليه استعمال الأحداث، وقد استعمل أمثالهم من قبله، ومواضع الحمى حماها لهم، فتابعهم ونزل عنها، فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا بادروا بالعدوان، فسفكوا الدم الحرام، واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام، وأخذوا المال الحرام. والله، لإصبع من عثمان خير من

طباق الأرض أمثالهم. والله، لو أن الذي اعتدوا عليه كان ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه، والثوب من درنه، إذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء. فتقدم عبد الله بن عامر الحضرمي - وكان عامل عثمان على مكة - وقال: أنا أول طالب بدمه. فكان أول مجيب، فتبعه

﴿ صفحة ٣٩ ﴾

بنو أمية، وكانوا قد هربوا من المدينة بعد مقتل عثمان إلى مكة فرفعوا رؤوسهم، فكان أول ما تكلموا في الحجار. ولما وصل طلحة والزبير إلى مكة أرسل عبد الله بن الزبير إلى عائشة يطلبان منها الخروج إلى البصرة للطلب بدم عثمان. امتنعت عائشة من الإجابة في بادئ الأمر وفكرت أن تذهب إلى أم سلمة، وكانت في مكة، بعنوان استشارتها، ولكنها محاولة منها في إقناعها بالخروج معها والاشتراك معها في محاربة الإمام، كما أقنعت حفصة بالخروج معها غير أن أخاها عبد الله بن عمر منعها، ولكنها ذهبت إلى أم سلمة تستشيرها في الخروج، ولما دخلت على أم سلمة نعت إليها عثمان وأنه قتل مظلوماً. ثم إن عائشة ذكرت لأم سلمة عزمها على الخروج إلى البصرة للطلب بدم عثمان، وطلبت منها أن ترافقها وتشاركها في تلك النهضة. فجعلت أم سلمة تعاتب عائشة على تحريض الناس بقتل عثمان ثم الطلب بدمه، مع العلم أن عثمان من بني عبد مناف، وعائشة امرأة من تيم بن مرة، وليس بينهما قرابة.

﴿ صفحة ٤٠ ﴾

ثم ذكرت أم سلمة شيئاً من فضائل علي (عليه السلام) وأنه لا ينبغي لأحد أن يحارب علياً ووعظتها، وذكرت بما سمعت من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في فضل علي (عليه السلام). وذكرت بحديث النبي يوم قال: " أيتكن صاحبة الجمل الأدب تنبجها كلاب الحوآب " (١) ؟ فتذكرت عائشة كل ذلك وقنعت بكلام أم سلمة، غير أن التأثير كان مؤقتاً، ثم عازمت على السفر إلى البصرة. أما يعلى بن منية فقد اشترى أربعمائة بعير ونادى: أيها الناس ! من خرج للطلب بدم عثمان فعلي جهازه. ووصل الخبر إلى أم سلمة فقالت لعائشة: لقد وعظتك فلم

تتعطي. . ثم حذرتها من تلك الفكرة، وذكرت لها بأنها تهتك حرمة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، لأنها زوجته وعرضه. . إلى آخر الكلام.

خروج عائشة إلى البصرة

خرجت عائشة بالجيش نحو البصرة، وفي أثناء الطريق وصلوا

« صفحة ٤١ »

إلى ماء الحوآب فنبحت الكلاب، وقال قائل: ما أكثر كلاب الحوآب، وما أشد نباها ! فأمسكت عائشة زمام بعيرها وصرخت: إنا لله وإنا إليه راجعون، إني لهي ؟ ؟ سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) - وعنده نساؤه - يقول: " ليت شعري، أيتكن صاحبة الجمل الأديب، تخرج فتنبها كلاب الحوآب(١)، يقتل عن يمينها ويسارها قتلى كثيرة، تنجو بعد ما كادت تقتل ؟ ؟ .. ردوني، ردوني. فأقبل جماعة وشهدوا وحلفوا أن هذا ليس بماء الحوآب فسارت عائشة لوجهها نحو البصرة. وهي أول شهادة زور في الإسلام. وصل الخبر إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) فأمر المنادي فنادى: الصلاة جامعة. فاجتمع الناس في المسجد (مسجد رسول الله) في المدينة وصعد الإمام (عليه السلام) المنبر، وخطب فيهم خطبة بليغة ذكر فيها الخلافة وأطوارها وأدوارها.. .. إلى أن قال: " وبايعني هذان الرجلان - طلحة والزبير - في أول من بايع، وتعلمون ذلك، وقد نكتنا غدرا، ونهضا إلى البصرة بعائشة ليفرقا جماعتكم ويلقيا بأسكم بينكم.

(١) الحوآب: منطقة في الطريق، فيها بساتين ونهر يسمى بالحوآب، وهو على مسير يومين أو

﴿ صفحة ٤٢ ﴾

اللهم فخذهما بما عملا أخذة واحدة رابية، ولا تنعش لهما ضرعة، ولا تقلهما عثرة، ولا تمهلها فواقا، فبئها يطلبان حقا تركاه ودما سفكاه. اللهم إني أقتضيك وعدك، فإني قلت - وقولك الحق -: (ثم بغى عليه لينصرنه الله). اللهم انجز لي موعدتي، ولا تكنني إلى نفسي، إنك على كل شئ قدير". ثم استشار الإمام أصحابه، فقال عمار بن ياسر: الرأي عندي أن تسير إلى الكوفة، فإن أهلها شيعة، وقد انطلق هؤلاء القوم إلى البصرة. وأشار عليه ابن عباس أن يأمر أم سلمة لتخرج معه تقوية لجانبه، فقال الإمام: أما أم سلمة فإني لا أرى إخراجها من بيتها كما رأى الرجلان إخراج عائشة. وأشار عليه جماعة أن يعتزل الفتنة ويذهب إلى ماله ب (ينبع) فلم يقبل منهم، وأخيرا نادى الإمام: " تجهزوا للمسير، فإن طلحة والزبير نكثا البيعة ونقضوا العهد، وأخرجوا عائشة من بيتها يريدان البصرة لإثارة الفتنة، وسفك دماء أهل القبلة".

﴿ صفحة ٤٣ ﴾

ورفع يديه للدعاء قائلا: " اللهم إن هذين الرجلين قد بغيا علي، ونكثا عهدي، ونقضوا عقدي، وشتماني بغير حق سومهما ذلك، اللهم فخذهما بظلمهما وأظفروني بهما، وانصرني عليهما".

خروج الإمام إلى البصرة

وجعل الإمام (عليه السلام) تمام بن العباس واليا على المدينة، وخرج بمن معه إلى الربذة، وإذا بطلحة والزبير قد ارتحلوا منها، فأرسل الإمام محمد بن أبي بكر ومحمد بن الحنفية إلى الكوفة ليستنفرا أهل الكوفة. وكان والي الكوفة - يومذاك - أبا موسى الأشعري، وكان عثمان الهوى،

منحرفا عن الإمام (عليه السلام)، وقد كتبت عائشة إليه كتابا تأمره أن يخذل الناس عن نصره الإمام، وقام بتلبية طلبها، فخطب فيهم وأمرهم أن يجتنبوا الفتنة ويبتعدوا عن سفك دماء المسلمين، فلم يستطيع محمد بن الحنفية ومحمد بن أبي بكر مقاومة الأشعري، فرجعا إلى الإمام. وكان الإمام قد كتب - قبل ذلك - كتابا إلى الأشعري يأمره أن يخرج بالناس لموازرة الإمام، ولكن الأشعري استمر على

« صفحة ٤٤ »

رأيه وامتنع عن البيعة، وأظهر العداء الكامن في صدره. فأخبروا الإمام بذلك، فكتب الإمام كتابا إلى الأشعري فيه خبر عزله من الحكم والتهديد إن لم يعتزل، وكتبا أخرى إلى أهل الكوفة يذكر لهم فيه عما جرى على عثمان. ثم يذكر بيعة الناس له، ومن جملتهم طلحة والزبير، ثم نكثهما البيعة وخروجهما ضده. وقبل وصول هذين الكتابين كان الإمام الحسن (عليه السلام) وعمار بن ياسر وزيد بن صوحان وقيس بن سعد جاؤوا إلى الكوفة وخطبوا في الناس الخطب المفصلة المطولة، يحثون الناس على نصره الإمام، فكان الأشعري يقوم ويخطب وينقض كلامهم، ويخذل الناس، ويأمرهم باعتزال الفتنة، وعدم الخوض في المعركة. وانقضت أيام وأيام والأمر هكذا في الكوفة، والإمام ينتظر المدد وهو في أرض يقال لها " ذي قار " واليوم تسمى " المقيرة " وهي قريبة من الناصرية في طريق البصرة. وأخيرا خرج البطل الضرغام مالك الأشر وأقبل إلى الكوفة ودخلها وهجم على دار الإمارة، واستولى عليها، وأخرج

« صفحة ٤٥ »

غلمان الأشعري منها، وكانت الحرب الباردة قائمة في المسجد بين الأشعري وبين أصحاب الإمام، وإذا بغلمان الأشعري دخلوا المسجد، وهم ينادون: يا أبا موسى، هذا الأشر. ودخل أصحاب الأشر وصاحوا: اخرج من المسجد، يا ويلك، أخرج الله روحك، إنك والله من المنافقين. خرج أبو موسى معزولا خانبا مخذولا، وأراد الناس أن ينهبوا أمواله فمنعهم الأشر. وأقبل

الأشتر فصعد المنبر وقال:.. .. وقد جاءكم الله بأعظم الناس مكانا، وأعظمهم في الإسلام سهما، وابن عم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأفقه الناس في الدين، وأقرأهم لكتاب الله، وأشجعهم عند اللقاء يوم البأس، وقد استنفركم، فما تنتظرون؟ أسعيدا؟ أم الوليد الذي شرب الخمر وصلى بكم على سكر واستباح ما حرمه الله فيكم؟ أي هذين الرجلين تريدون؟ قبح الله من له هذا الرأي، فانفروا مع الحسن ابن بنت نبيكم، ولا يختلف رجل له قوة، فوالله ما يدري رجل منكم ما يضره وما ينفعه، وإني لكم ناصح شفيق عليكم إن كنتم تعقلون أو تبصرون، أصبحوا إن شاء الله غدا غادين مستعدين، وهذا

« صفحة ٤٦ »

وجهي إلى ما هناك بالوفاء. ثم قام ابن عباس وعزل الأشعري عن الولاية وخلعه عنها، وجعل مكانه قرظة بن كعب، فلم يبرحوا من الكوفة حتى سيروا سبعة آلاف رجل والتحقوا بالإمام في ذي قار، والتحق به قبل ذلك ألفان من قبيلة طي، وخرج الإمام نحو البصرة. وكانت عائشة وطلحة والزبير ومن معهم قد وصلوا إلى البصرة قبل ذلك، وتعجب الناس من قدومهم إلى البصرة للطلب بدم عثمان المقتول بالمدينة.

واقعة الجمل الصغرى

وسمع عثمان بن حنيف (والي البصرة) بوصول القوم، فأرسل إليهم أبا الأسود الدؤلي وعمر بن حصين للتحقيق، فدخلا على عائشة وقالا لها: يا أم المؤمنين! ما حملك على المسير؟ ما الذي أقدمك هذا البلد وأنت حبيسة رسول الله، وقد أمرك الله أن تقري في بيتك؟ فجرى كلام وجدال طويل بين عائشة والرجلين، وكلما خوفاهما من إراقة دماء المسلمين وإفساد الأمر قابلتهم بكل

« صفحة ٤٧ »

صلابة وحدة. ودخلا على طلحة فلم يسمعا منه إلا الكلام القبيح والطرده، ثم السب لأمير المؤمنين (عليه السلام)، استعدت عائشة للحرب، وخرجت بمن معها إلى محلة في البصرة يقال لها (المربد) وخطبت في أهل البصرة خطبة، فنعت عثمان وتأسفت على قتله، ثم ذكرت عليا وبيعته وأفرطت في كلامها، ثم طلبت من أهل البصرة نقض خلافة الإمام. فصدقها ناس وكذبها آخرون، واضطرب الناس بأقوالهم، واشتغلوا بالسب والشتم واللعن. وتوجهت عائشة إلى دار الإمارة ومن معها وطلبوا من عثمان بن حنيف أن يسلم إليهم دار الإمارة، فأبى عليهم، واشتعلت نار الحرب حتى الظهر، وقتل في تلك الواقعة خمسمائة شيخ من بني عبد القيس من شيعة علي وأنصار عثمان بن حنيف، سوى الجرحى، واستمرت الحرب في البصرة وكثر القتلى والجرحى. وتدخل بعض الناس وقرروا الهدنة، فتم القرار على أن تكون دار الإمارة والمسجد وبيوت الأموال تحت اختيار الوالي عثمان بن حنيف، وتكون البصرة تحت حيازة طلحة والزبير

« صفحة ٤٨ »

وعائشة، وكتبوا على هذه المصالحة كتابا، وشهد الناس على ذلك. ولما أمن الناس واطمأنوا وألقوا سلاحهم أقبل طلحة والزبير وأصحابهم حتى أتوا دار الإمارة على حين غفلة، وكان خمسون رجلا يحرسون بيوت الأموال وهم من شيعة الإمام، أحاط الزبير بهؤلاء وقتل منهم أربعين رجلا صبورا، ثم هجموا على عثمان بن حنيف فأوثقوه رباطا، وعمدوا إلى لحيته فنتفوها حتى لم يبق منها شعرة واحدة، وנתفوا شعر حاجبه وأشفار عينيه، وأوثقوه بالحديد. وأصبح الصباح فجاء طلحة والزبير إلى المسجد الأعظم لأداء صلاة الصبح جماعة، فأراد طلحة أن يتقدم ويصلي بالناس، فدفعه الزبير، وأراد الزبير أن يصلي بالناس فمنعه طلحة، استمر النزاع والتدافع بين الإمامين حتى كادت الشمس أن تطلع !! فصاح الناس: الله الله يا أصحاب رسول الله في الصلاة نخاف فوتها ! فأمرت عائشة أن يصلي مروان بالناس، وأخيرا تقدم عبد الله بن الزبير وصلى بالناس. انتشر خبر قتل الحرس وإلقاء القبض على عثمان بن حنيف،

فأقبل حكيم بن جبلة إلى عشيرته فحثهم على النهوض، وجاء طلحة والزبير وشبت نار الحرب مرة ثانية، وقتل حكيم بن جبلة وأخوه وعدد من الناس، واستولى طلحة والزبير على بيوت الأموال، ونصبا ألقالا على أبوابها، فأمرت عائشة بختم بيت المال، وختم كل من طلحة والزبير بختم على بيوت الأموال. انقضت أيام وعائشة وطلحة والزبير يخطبون في الناس ويهيجونهم ويحذرونهم من الإمام (عليه السلام) وقد كان ينتهي كلامهم إلى ذم الإمام وسبه، وأرسلت عائشة كتبا ورسائل إلى البلاد والأمصار، كتبت فيها ما أرادت.

مذكرات الإمام مع أصحاب الجمل

وصل أخيرا الإمام بجيشه الجرار إلى البصرة فيهم ثمانون بدريا، ومائتان وخمسون ممن بايع تحت الشجرة. وبلغه الخبر عن المجزرة الرهيبة التي أقامها هؤلاء، فأرسل الإمام صعصعة بن صوحان للتفاهم أو لإتمام الحجة على عائشة والرجلين، فالتقى بهم صعصعة فلم يسمع منهم إلا التهديد والخشونة في الكلام، وأرسل الإمام (عليه السلام) عبد الله بن العباس وأمره أن يلتقي بطلحة

والزبير، فلم تنجح مذكراته معهما. كان وصول الجيش العلوي إلى البصرة على أحسن هيئة وأجمل نظام، وفيهم المشايخ من أهل بدر والمهاجرين والأنصار، وقواد الجيش ومعهم الألوية والرايات، والمواكب تترى بعضها خلف بعض، وفي الأخير وصل موكب الإمام، وهو موكب عظيم وفيه خلق كثير عليهم السلاح والحديد، ومعهم الإمام وعليه الوقار والسكينة، ينظر إلى

الأرض أكثر من نظره إلى السماء، والجنود خلفه كأن على رؤوسهم الطير، والإمام الحسن عن يمينه، والإمام الحسين عن شماله، وابنه محمد بن الحنفية بين يديه ومعه الراية. فأمر الإمام (عليه السلام) ابن عباس أن يرجع إلى عائشة ثانياً ويذكر لها خروجها من بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ويخوفها من الخلاف على الله، والتبرج الذي نهاها الله عنه. دخل ابن عباس على عائشة وأدى رسالته، وذكر لها فضل علي وسابقته، ولكنها لم تردع ولم تقنع. ورجع ابن عباس إلى الزبير فوجده وحده، فجعل يلين له في الكلام ويخوفه عواقب أعماله، ويلومه على إسراعه في الخلاف،

« صفحة ٥١ »

فجاء ابنه عبد الله، وكان شاباً شرساً قليل الحياء متهوراً، وقابل ابن عباس بكل صلافة. وكانت المباحثات بلا جدوى ولا فائدة، واستعد الفريقان للحرب. كان كعب بن سور سيد الأزد قد امتنع عن الخوض في المعركة، فجاء طلحة والزبير إلى عائشة وطلبوا منها أن تتوجه بنفسها إلى كعب وتطلب منه المؤازرة والتعاون معها، فأرسلت عائشة إليه تطلب منه الحضور، فلم يجبها كعب، فركبت بغلاً وأحاط بها نفر من أهل البصرة وسارت إليه بنفسها، وسألته عن سبب امتناعه، فقال: يا أمه، لا حاجة لي في خوض هذه الفتنة. فاستعبرت عائشة باكية وطلبت منه أن ينصرها، فرق لها كعب وأجابها وعلق المصحف في عنقه وخرج معها. اشتكرت العشائر والقبائل من المدينة إلى الكوفة إلى طي إلى أهل البصرة في نصرة الإمام (عليه السلام). وكان خطباء الفريقين يخطبون في قومهم ويحرضونهم على الحرب.

« صفحة ٥٢ »

ساحة القتال

كانت ساحة القتال في الخريبة، وهي اليوم بين الزبير والبصرة يقال لها (الخر) وهناك قبر طلحة - وهي مدينة الزبير حاليا معروفة - اصطف الفريقان للقتال، وكتب كل منهما الكتاب. وخرج علي (عليه السلام) وعليه عمامة سوداء وقميص ورداء، وهو راكب على بغلة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الشهباء. وجاءت عائشة وهي في هودج على بعير، وعن يمينها وشمالها طلحة والزبير وابنه عبد الله، وخلفها الجماهير الذين رافقوها من مكة وانضموا إليها في البصرة. وكان النشاط في أصحاب الإمام أكثر، وكانوا يريدون الهجوم على العدو، لكن الإمام يمنعهم ويقول لهم: لا تعجلوا على القوم حتى أعذر فيما بيني وبين الله وبينهم. فقام إليهم وقال: "يا أهل البصرة! هل تجدون علي جورا في حكم؟" قالوا: لا. قال: "فحيفا في قسم؟" قالوا: لا.

﴿ صفحة ٥٣ ﴾

قال: "فرغبة في دنيا أصبتها لي ولأهل بيتي دونكم، فنقمتم علي فنكنتم بيعتي؟" قالوا: لا. قال: "فأقمت فيكم الحدود وعطلتها عن غيركم؟" قالوا: لا. قال: "فما لبيعتي تنكث وبيعة غيري لا تنكث؟ إنني ضربت الأمر أنفه وعينه فلم أجد إلا الكفر أو السيف". ثم التفت إلى أصحابه وقال: "إن الله تعالى يقول في كتابه: (وإن كنثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أنمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون) (١). ثم قال: "والذي فلق الحبة وبرأ النسمة واصطفى محمدا للنبوثة إنهم لأصحاب هذه الآية، وما قوتلوا منذ نزلت". ثم التفت إلى ابن عباس وقال له: "امض بهذا المصحف إلى طلحة والزبير وعائشة وادعهم إلى ما فيه". جاء ابن عباس فبدأ بالزبير وقال له: "إن أمير المؤمنين

« صفحة ٥٤ »

يقول: ألم تبايعني طانعا؟ فبم تستحل دمي؟ وهذا المصحف وما فيه بيني وبينك فإن شئت تحاكمنا إليه. فقال الزبير: ارجع إلى صاحبك، فإنا بايعنا كارهين، وما لي حاجة في محاكمته. انصرف ابن عباس إلى طلحة، فوجد فيه الاستعداد للشر والحرب، فقال له: والله، ما أنصفتم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ حبستم نساءكم وأخرجتم حبيسته. ونادى طلحة: ناجزوا القوم، فإنكم لا تقومون لحجاج ابن أبي طالب. ورجع ابن عباس وأخبر الإمام بالنتيجة السلبية، وقال له: ما تنتظر؟ والله لا يعطيك القوم إلا السيف، فأحمل عليهم قبل أن يحملوا عليك. فقال الإمام: "نستظهر بالله عليهم". وهناك خرج أمير المؤمنين (عليه السلام) بين الصفيين وكان حاسرا ونادى بأعلى صوته: أين الزبير؟ فليخرج". ثم نادى ثانية، وكان طلحة والزبير واقفين أمام صفيهما، فخرج الزبير، وخرج الإمام إليه، فصاح به أصحابه: يا أمير

« صفحة ٥٥ »

المؤمنين! أخرج إلى الزبير الناكث بيعته وأنت حاسر وهو على فرس شاكي السلاح، مدجج في الحديد وأنت بلا سلاح؟! فقال الإمام: "ليس علي منه بأس، إن علي منه جنة وأقية، ولن يستطيع أحد فرارا من أجله، وإني لا أموت، ولا أقتل إلا بيد أشقاها، كما عقر الناقة أشقى ثمود". فخرج إليه الزبير، فقال (عليه السلام): "أين طلحة؟ ليخرج" فخرج، وقربا من الإمام، حتى اختلفت أعناق دابتيهما.

فقال الإمام للزبير: "ما حملك على ما صنعت؟" فقال الزبير: الطلب بدم عثمان. فقال الإمام: "أنت وأصحابك قتلتموه، فيجب عليك أن تقيد من نفسك، ولكن أنشدك الله الذي لا إله إلا هو، الذي أنزل الفرقان على نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) أما تذكر يوما قال لك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): يا زبير! أتحب عليا؟ فقلت: وما يمنعني عن حبه وهو ابن خالي؟! فقال لك: أما أنت فستخرج عليه يوما وأنت له ظالم؟". فقال له الزبير: اللهم بلى، قد كان ذلك. فقال الإمام: "فأنشدك الله الذي أنزل الفرقان على نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم)

﴿ صفحة ٥٦ ﴾

أما تذكر يوماً جاء رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من عند ابن عوف، وأنت معه، وهو أخذ بيدك، فاستقبلته أنا فسلمت عليه فضحك في وجهي، فضحكت أنا إليه، فقلت أنت: لا يدع ابن أبي طالب زهوه أبداً. فقال لك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): مهلاً يا زبير، فليس به زهو، ولتخرجن عليه يوماً وأنت ظالم له؟ " فقال الزبير: اللهم بلى، ولكن نسيت، فأما إذا ذكرتني ذلك فلا تصرفن عنك، ولو ذكرت هذا لما خرجت عليك. ثم التفت إليهما معا وقال: " نشدتكما الله، أتعلمان وأولوا العلم من أصحاب محمد وعائشة بنت أبي بكر أن أصحاب الجمل، وأهل النهروان ملعونون على لسان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد خاب من افتري؟ " فقال الزبير: كيف نكون ملعونين ونحن من أهل الجنة؟! فقال الإمام: " لو علمت أنكم من أهل الجنة لما استحللت قتالكم ". فقال الزبير: أما سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول يوم أحد: " أوجبت طلحة الجنة؟ " و " من أراد أن ينظر إلى الشهيد يمشي على الأرض حياً فلينظر إلى طلحة؟ " .

﴿ صفحة ٥٧ ﴾

أوما سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: " عشرة من قريش في الجنة؟ " . فقال الإمام: " فسمهم ". فجعل الزبير يعد فعد تسعة منهم، وفيهم أبو عبيدة بن الجراح وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل. فقال الإمام: " عدت تسعة فمن العاشر؟ " . فقال الزبير: أنت. فقال الإمام: " أما أنت فقد أقررت أني من أهل الجنة، وأما ما ادعيت لنفسك وأصحابك فإني به لمن الجاحدين، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لقد عهد النبي الأمي لي أن بعض من سميت في تابوت في جب في أسفل درك من جهنم ". وفي نسخة: " وإن في جهنم جبا، فيه ستة من الأولين وستة من الآخرين، على رأس ذلك الجب صخرة، إذا أراد الله تعالى أن يسعر جهنم على أهلها أمر بتلك الصخرة فرفعت، وإن في ذلك الجب من سميت ". ثم قال الإمام (عليه السلام):

" دع هذا، أفلسنت بايعتني طائعا ؟ " . فقال الزبير: بلى. فقال الإمام: " أفوجدت مني حدثا يوجب مفارقتي ؟ " .

﴿ صفحة ٥٨ ﴾

فسكت الزبير، ثم قال: لا جرم والله لا قاتلتك. ثم التفت (عليه السلام) إلى طلحة وقال: " يا طلحة ! معكما نساؤكما ؟ " . فقال طلحة: لا. فقال الإمام: " عمدتما إلى امرأة موضعها في كتاب الله تعالى القعود في بيتها، فأبرزتماها وصنتما حلالتكما في الخيام والحجال ؟ ! ما أنصفتما رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وقد أمر الله أن لا يكلمن إلا من وراء حجاب " . وأردف (عليه السلام) قائلا: " أخبرني عن صلاة ابن الزبير بكما، أما يرضى أحدكما بصاحبه ؟ أخبرني عن دعانكما الأعراب إلى قتالي ؟ ما يحملكما على ذلك ؟ " . قال طلحة: يا هذا، كنا في الشورى ستة، مات منا واحد، وقتل آخر، فنحن اليوم أربعة، كلنا لك كاره. فقال الإمام: " ليس ذلك علي، قد كنا في الشورى والأمر في يد غيرنا، وهو اليوم في يدي، أرأيت لو أردت بعد ما بايعت عثمان أن أرد هذا الأمر شورى أكان ذلك لي ؟ " . فقال طلحة: لا. فقال الإمام: " ولم ؟ " .

﴿ صفحة ٥٩ ﴾

فقال طلحة: لأنك بايعت عثمان طائعا. فقال الإمام: " كيف ذلك والأنصار معهم السيوف مخترطة، يقولون: لنن زغتم وبايعتم واحدا منكم، وإلا ضربنا أعناقكم جميعا ؟ فهل قال لك ولأصحابك أحد شيئا من هذا وقت ما بايعتmani ؟ وحجتي في الاستكراه في البيعة أوضح من حجتك وقد بايعتني أنت وأصحابك طائعين غير مكرهين، وكنتما أول من فعل ذلك ولم يقل أحد: لتبايعان أو لنقتلكما " .

موقف الزبير

ثم انصرف الرجلان إلى صفهما، فأراد الزبير الخروج من الحرب والاتصراف إلى البصرة، فقال له طلحة: مالك يا زبير؟ مالك تنصرف عنا؟ سحرك ابن أبي طالب؟ فقال الزبير: لا، ولكن ذكرني ما كان أنسانيه الدهر، واحتج على بيعتي له. فقال طلحة: لا، ولكن جئت وانتفخ سحرك. فقال الزبير: لم أجبن، ولكن أذكر فذكرت. فقالت عائشة: ما وراءك يا أبا عبد الله؟ فقال الزبير: الله ورائي، إني ما وقفت موقفا في شرك

« صفحة ٦٠ »

ولا إسلام إلا ولي فيه بصيرة، وأنا اليوم على شك من أمري، وما أكاد أبصر موضع قدمي. فقالت عائشة: لا والله، بل خفت سيوف ابن أبي طالب، أما إنها طوال حداد، تحملها سواعد أمجاد، ولنن خفتها فلقد خافها الرجال من قبلك. فقال ابنه عبد الله: جئنا جئنا. فقال الزبير: يا بني، قد علم الناس أنني لست بجبان، ولكن ذكرني علي شينا سمعته من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فحلفت أن لا أقاتله. فقال عبد الله بن الزبير: يا أبة! جئت بهذين العسكرين العظيمين حتى إذا اصطفا للحرب قلت أتركهما وانصرف! فما تقول قريش غدا بالمدينة؟! الله الله يا أبة، لا تشمت بنا الأعداء، ولا تشن نفسك بالهزيمة قبل القتال. فقال الزبير: ما أصنع يا بني وقد حلفت أن لا أقاتله؟ فقال ابنه: كفر عن يمينك، ولا تفسد أمرنا. فقال الزبير: عبادي مكحول حر لوجه الله، كفارة ليميني. ثم عاد معهم للقتال، فعند ذلك أخذ الإمام (عليه السلام) المصحف

« صفحة ٦١ »

بيده وطلب من يقرأ عليهم هذه الآية: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفي إلى أمر الله) (١). فقام غلام حدث السن

من مجاشع، يقال له (مسلم) عليه قباء أبيض، فقال له: أنا آخذه يا أمير المؤمنين. فقال له: " يا فتى ! إن يدك اليمنى تقطع، فتأخذه بيدك اليسرى فتقطع اليسرى، ثم تضرب عليه بالسيف حتى تقتل ". فقال الفتى: لأصبر على ذلك. فنادى الإمام ثانية، فقام الفتى ثانية، فأعاد عليه مقالته، فقال الفتى: لا عليك، فهذا قليل في ذات الله، فأخذ المصحف ووقف أمام الصفوف، وقال: هذا كتاب الله، وأمير المؤمنين يدعوكم إلى ما فيه. فأمرت عائشة بإعدامه، فقطعوا يديه، ثم أحاطوا به وطعنوه بالرمح من كل جانب. وكانت أمه واقفة تنظر فصاحت فطرحت نفسها على ولدها.

(١) الحجرات / ٩ .

﴿ صفحة ٦٢ ﴾

واقعة الجمل الكبرى

كان الإمام (عليه السلام) ينتظر وقت الظهر لتنزل الملائكة، وكان يقول: " لا تقاتلوا القوم حتى يبدأوكم، فإنكم بحمد الله على حجة، وكفكم عنهم حجة أخرى، فإذا قاتلتموهم فلا تجهزوا على جريح، فإذا هزمتوهم فلا تتبعوا مدبراً، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل، وإذا وصلتكم إلى رجال القوم فلا تهتكوا ستراً، ولا تدخلوا داراً، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً، ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم وصلحاءكم، فإنهن ضعاف القوى والأنفس والعقول. .. " إلى آخر الوصايا. كانت سهام القوم تترى على الإمام وأصحابه كالمطر، فصاح الناس: حتى متى يا أمير المؤمنين ندلي نحورنا للقوم يقتلون رجلاً رجلاً، والله قد أعذرت إن كنت تريد الإعذار. هناك دعا الإمام ابنه محمد بن الحنفية فأعطاه الراية، وهي راية سوداء كبيرة، وهي

راية رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقال له: " يا بني ! هذه راية ما ردت قط ولا ترد قط ". ثم لبس الإمام درع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وحزم بطنه بعصابة

﴿ صفحة ٦٣ ﴾

أسفل من سرتة، ثم قال لولده محمد بن الحنفية: " يا أبا القاسم ! قد حملت الراية وأنا أصغر منك فلما استفزني عدوي، وذلك أنني لم أبارز أحدا إلا حدثتني نفسي بقتله، فحدث نفسك - بعون الله تعالى - بظهورك عليهم ". وأعطاه تعاليم حربية. وزحف أصحاب الجمل نحو معسكر الإمام، فصاح الإمام بابنه محمد: " امض ". فمضى، وتبعه أصحابه واشتعلت الحرب، ودار القتال. وأقبل الإمام يهرول وبيده السيف يصعد وينزل فتطير الرؤوس وتطيح الأيدي ولا يتلخخ السيف بالدم لسرعة اليد وسبق السيف الدم، وزحف الجيش خلفه. وحمل عمار بن ياسر على الميسرة، ومالك الأشتر على الميمنة، وحملوا حملة رجل واحد، ونادى الإمام: " عليكم بالسيوف ". فجعلوا يضربون بالسيوف على الرؤوس. ثم نادى المنادي: عليكم بالأقدام، وكان للفريقين أراجيز كثيرة، مذكورة في كتب التاريخ. وقتل طلحة في ذلك اليوم ولم يعرف قاتله، قيل: إن مروان بن الحكم رماه بسهم فقتله يطلب بذلك ثأر عثمان، وهو يقول:

﴿ صفحة ٦٤ ﴾

أينما أصابت فتح. وكان أهل البصرة كل من أراد منهم القتال أخذ بخطام الجمل ويرتجز ويقاقل حتى يقتل، فخرج كعب بن سور فأخذ بخطام الجمل وهو يرتجز ويقول:

يا معشر الأزد عليكم أمكم * فإنها صلاتكم وصومكم
والنعمة العظمى التي تعممكم * فاحضروها جدكم وحزمكم
لا يغلبن سم العدو سمكم * إن العدو إن علاكم رمكم
وخصكم بجوره وعمكم * لا تفضحوا اليوم فداكم قومكم

فقاتل حتى قتل، فخرج آخر فأخذ بخطام الجمل وارتجز:

يا أم يا أم خلا مني الوطن * لا أبتغي القبر ولا أبغي الكفن
من هيهنا محشر عوف بن قطن * إن فاتنا اليوم علي ألغين
أو فاتنا ابناه حسين وحسن * إذن أمت بطول هم وحن

انتصار جيش الإمام

واشتعلت نار الحرب، واستعر القتال، فاقتتلوا قتالا شديدا، فصاح الإمام (عليه السلام): " ما
أراه يقاتلكم غير هذا اليهودج، اعقروا

« صفحة ٦٥ »

الجمال أو عرقبوه، فإنه شيطان ". أو قال: " اعقروه وإلا فنيت العرب لا يزال السيف قائما
وراكعا، يحصد الرؤوس حتى يهوي هذا البعير إلى الأرض ".
فضرب عجز الجمال فوق لحينه، وضرب بجرانه الأرض، وعج عجيبا لم يسمع بأشد منه، فما
هو إلا أن صرع حتى فر الرجال كما يطير الجراد في الريح الشديد الهبوب، وسقط اليهودج.
فصاح الإمام اقطعوا البطان. فقطعه محمد بن أبي بكر أخو عائشة وكان من أصحاب الإمام،
وأخرج اليهودج فقالت عائشة: من أنت ؟ فقال محمد: أبغض أهلك إليك. فقالت عائشة: ابن
الخنثمية (١) ؟

(١) كانت أسماء بنت عميس الخنثمي امرأة مؤمنة سالحة، وكانت زوجة جعفر الطيار (ع)
ولما استشهد في معركة مؤتة، تزوجها أبو بكر وأولدت منه محمدا هذا، ولما مات عنها أبو بكر
تزوجها أمير المؤمنين (ع) وكان محمد بن أبي بكر صغير السن، فتربى في كنف الإمام، فكان
ربيبه ومن أخلص أصحابه كان الإمام (ع) يقول: " محمد ابني ولكنه من صلب أبي بكر "،
وكان من أخلص أصحاب الإمام وأحبهم إليه، وقد ولاه أخيرا إمارة مصر من قبله، وبدسانس من

معاوية وعمرو بن العاص، تمكنا من إثارة بعض الغوغائيين عليه فقتلوه، وقيل قتل بالعسل المسموم، وبعدها أدخل جسده في جوف حمار وأحرق، وقبره لحد اليوم شاخص في مصر ومعلوم. . كما أن معاوية أرسل من يسم الوالي الجديد على مصر، بالطريق بالعسل المسموم، وهو الصحابي الجليل مالك الأشتر النخعي، وعندما علم أمير المؤمنين (ع) رثاه وقال كلمته المشهورة: " كان مالكا لي كما كنت لرسول الله ".

﴿ صفحة ٦٦ ﴾

فقال محمد: نعم، ولم تكن دون أمهاتك. فقالت عائشة: لعمري بل هي شريفة، دع عنك هذا، الحمد لله الذي سلمك. فقال محمد: قد كان ذلك ما تكرهين. فقالت عائشة: يا أخي لو كرهته ما قلت الذي قلت. فقال محمد: كنت تحبين الظفر وأني قتلت؟ فقالت عائشة: قد كنت أحب ذلك، ولكنه لما صرنا إلى ما صرنا إليه أحببت سلامتك لقرابتي منك، فاكفف ولا تعقب الأمور، وخذ الظاهر ولا تكن لومة ولا عدلة.

﴿ صفحة ٦٧ ﴾

وجاء الإمام ففرع اليهودج برمحه وقال: " يا حميراء ! بهذا أوصاك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ؟ ! ". فقالت: يا بن أبي طالب، ملكت فاصفح وظفرت فاسجع. فقال الإمام: " والله ما أدري متى أشفي غيظي؟ أحين أقدر على الانتقام يقال لي: لو عفوت؟ ! أم حين أعجز من الانتقام فيقال لي: لو صبرت، بل أصبر فإن لكل شئ زكاة، وزكاة القدرة والمكنة العفو والصفح ". ثم التفت (عليه السلام) إلى محمد بن أبي بكر وقال: " شأنك بأختك، فلا يدنو منها أحد سواك ". وأمر الإمام (عليه السلام) فاحتملت عائشة بهودجها إلى دار عبد الله بن خلف في البصرة، وأمر بالجمل أن يحرق ثم يذرى رماده في الريح، وقال (عليه السلام) (إشارة إلى

الجمال: " لعنه الله من دابة، فما أشبهه بعجل بني إسرائيل ". ثم تلا: (وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقته ثم لنسفته في اليم نسفا) (١).

(١) طه / ٩٧ .

﴿ صفحة ٦٨ ﴾

ركبت عائشة وهي تقول: فخرتم وغلبتم، وكان أمر الله قدرا مقدورا. ونادى الإمام: " يا محمد بن أبي بكر، سلها هل وصل إليها شئ من الرماح والسهام ؟ " فسألها، فقالت: نعم، وصل إلي سهم، خدش رأسي وسلمت من غيره، الله بيني وبينكم. فقال محمد: الله ليحكم عليك يوم القيامة ما كان بينك وبين أمير المؤمنين حين تخرجين عليه وتؤلبين الناس على قتاله وتبذرين كتاب الله وراء ظهرك. فقالت عائشة: دعنا يا محمد وقل لصاحبك يحرسني. فأمر الإمام أن يحملها أخوها إلى دار ابن خلف في البصرة، فحملها وهي لا تفتر عن سب الإمام وسب أخيها محمد، والترحم على أصحاب الجمل. ومر الإمام على القتلى وجعل يخاطبهم ويعاتبهم، وخاطب كعبا وطلحة، فقيل له: أتكلم هؤلاء بعد القتل ؟ فقال: " والله لقد سمعا كلامي كما سمع أهل القلب كلام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم بدر ". ثم نادى منادي الإمام: من أحب أن يوارى قتيله فليواره،

﴿ صفحة ٦٩ ﴾

وأمر أصحابه وقال لهم: واروا قتلتنا في ثيابهم التي قتلوا فيها، فإنهم يحشرون على الشهادة، وإني لشاهد لهم بالوفاء. فجاء ابن عباس يطلب الأمان لمروان بن الحكم، فأمره الإمام بإحضاره، فلما حضر قال له الإمام: " أتبايع ؟ " فقال: نعم وفي النفس ما فيها. فقال الإمام: " الله أعلم بما في القلوب ". فلما بسط يده لبيابعه أخذ كفه من كف مروان وجذبها، وقال: " لا

حاجة لي فيها، إنها كف يهودية، لو بايعني بيده عشرين مرة لنكت باسته". ثم قال: " هيه يا بن الحكم، خفت على رأسك أن تقع في هذه المعمة ؟ ! كلا والله، حتى يخرج من صلبك فلان وفلان يسومون هذه الأمة خسفا ويسقونهم كأسا مصيرة، ومن المناسب هنا أن أنقل نص كلام ابن أبي الحديد المعتزلي في شرح نهج البلاغة (ج ١، ص ٢٢ و ٢٣)، قال: وأما الحلم والصفح، فكان أحلم الناس عن ذنب، وأصفحهم عن مسئ، وقد ظهر صحة ما قلناه يوم الجمل، حيث ظفر بمروان بن الحكم - وكان أعدى الناس له، وأشدهم بغضا -

« صفحة ٧٠ »

فصفح عنه. وكان عبد الله بن الزبير يشتمه على رؤوس الأشهاد، وخطب يوم البصرة فقال: قد أتاك الوغد اللئيم علي بن أبي طالب - وكان علي (عليه السلام) يقول: " ما زال الزبير رجلا منا أهل البيت " حتى شب عبد الله - فظفر به يوم الجمل، فأخذه أسيرا، فصفح عنه، وقال: " اذهب فلا أرينك "، لم يزد على ذلك. وظفر بسعيد بن العاص بعد وقعة الجمل بمكة، وكان له عدوا، فأعرض عنه ولم يقل له شيئا. وقد علمتم ما كان من عائشة في أمره، فلما ظفر بها أكرمها، وبعث معها إلى المدينة عشرين امرأة من نساء عبد القيس عممهن بالعمائم، وقلدهن بالسيوف، فلما كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يذكر به، وتأففت وقالت: هتك ستري برجاله وجنده الذين وكلهم بي، فلما وصلت المدينة ألقى النساء عمانمهن، وقلن لها: إنما نحن نسوة. وحاربه أهل البصرة، وضربوا وجهه ووجوه أولاده بالسيوف، وشتموه ولعنوه، فلما ظفر بهم رفع السيوف عنهم، ونادى مناديه في أقطار العسكر: ألا لا يتبع مول، ولا يجهز على

« صفحة ٧١ »

جريح، ولا يقتل مستأسر، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن تحيز إلى عسكر الإمام فهو آمن. ولم يأخذ أئقالمهم، ولا سبي ذرارهم، ولا غنم شينا من أموالهم، ولو شاء أن يفعل كل ذلك لفعل،

ولكنه أبى إلا الصفح والعفو وتقبل سنة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم فتح مكة، فإنه عفا والأحقاد لم تبرد، والإساءة لم تنس، انتهى كلام المعتزلي.

مقتل الزبير

أما الزبير فإنه خرج من المعركة ووصل إلى منطقة في ضواحي البصرة يقال لها " وادي السباع " فقتله ابن جرموز غيلة وأخذ رأسه وسيفه وخاتمه، وجاء بها إلى معسكر الإمام، فاستأذن ودخل وإذا به يرى القائد الأعلى للمسلمين جالسا، بين يديه ترس عليه قرص من خبز الشعير، فسلم عليه، وهناه بالفتح عن الأحنف، لأن الحرب قد وضعت أوزارها حينئذ، وقال: أنا رسول الأحنف، وقد قتلت الزبير، وهذا رأسه وسيفه. فألقاهما بين يديه. فقال الإمام: " كيف قتلته؟ وما كان من أمره؟ فحدثنا كيف

« صفحة ٧٢ »

كان صنعك به؟ ". فقص عليه ما جرى فقال: ناولني سيفه، فناوله، فاستله وهزه وقال: " سيف أعرفه، طالما جلا الكرب عن وجه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ". ثم التفت الإمام إلى ابن جرموز قائلا: " والله، ما كان ابن صفية جباناً ولا لنيماً، ولكن الجبن ومصارع السوء ". ثم تفرس في وجه الزبير وقال: " ومنه قرابة، ولكن دخل الشيطان منخرك فأوردك هذا المورد ". فقال ابن جرموز: الجائزة يا أمير المؤمنين. فقال (عليه السلام): " أما إنني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: بشر قاتل ابن صفية بالنار ". وقبض أمير المؤمنين (عليه السلام) ما وجد في عسكر الجمل من سلاح ودابة ومملوك ومتاع فقسمه بين أصحابه. فقال بعض أصحابه: أقسم بيننا أهل البصرة، فاجعلهم رقيقاً. فقال: " لا ". فقالوا: كيف تحل لنا دماءهم وتحرم علينا سبيهم؟

« صفحة ٧٣ »

فقال: " كيف يحل لكم ذرية ضعيفة دار هجرة الإسلام ؟ وأما ما جلب به القوم في معسكرهم عليكم فهو لكم مغنم، وأما ما وارت الدور وأغلقت عليه الأبواب فهو لأهله، ولا نصيب لكم في شئ منه ". فلما أكثروا عليه القول قال: " فافرعوا على عائشة لأدفعها إلى من تصيبه القرعة ". فقالوا: نستغفر الله يا أمير المؤمنين. ثم انصرفوا. فلما دخل (عليه السلام) بيت المال في نفر من المهاجرين والأنصار، ونظر إلى كثرة ما فيه قال: " غري غيري " مرارا. ثم نظر إلى المال وصعد وصوب بصره، وقال: " أقسموه بين أصحابي خمسمائة خمسمائة ". فقسم بينهم، فلا والذي بعث محمدا (صلى الله عليه وآله وسلم) بالحق نبيا ما نقص درهما ولا زاد درهما، كأنه كان يعرف مبلغه ومقداره، وكان مقدار المال ستة ملايين، وعدد أصحابه اثنا عشر ألف رجل، وأخذ هو خمسمائة درهم كواحد منهم. فجاءه رجل لم يحضر الواقعة فقال: يا أمير المؤمنين ! كنت شاهدا بقلبي، وإن غاب عنك جسمي، فاعطني من الفئ شيئا.

« صفحة ٧٤ »

فدفع إليه الذي أخذه لنفسه، ولم يصب من الفئ شيئا. وفي رواية أخرى: جاء رجل فقال: إن اسمي سقط من كتابك. فقال (عليه السلام): " ردوها عليه " ثم قال: " الحمد لله الذي لم يصل إلي من هذا المال شئ ". ولما فرغ من تقسيم بيت المال قام خطيبا في أصحابه، فحمد الله وأثنى عليه وقال: " أيها الناس ! إنني أحمد الله على نعمة قتل طلحة والزبير، وأيم الله لو كانت عائشة طلبت حقا، وهانت باطلا، لكان لها في بيتها مأوى، وما فرض الله عليها الجهاد، وإن أول خطأها في نفسها، وما كانت، والله على القوم أشأم من ناقة الصخرة، وما ازداد عدوكم إلا حقدا، وما زادهم الشيطان إلا طغيانا، ولقد جاؤوا مبطلين، وأدبروا ظالمين، إن إخوانكم المؤمنين جاهدوا في سبيل الله وآمنوا يرجون مغفرة الله، وإننا لعلى الحق وإنهم لعلى الباطل، ويجمعنا الله وإياهم يوم الفصل، واستغفر الله لي ولكم ". أرسل الإمام (عليه السلام) ابن عباس إلى عائشة يأمرها بتعجيل الرحيل، وقلعة العرجة - الإقامة - فجاءها ابن عباس وهي في

« صفحة ٧٥ »

قصر بني خلف، فطلب الإذن عليها فلم تأذن له، فدخل عليها بغير إذنها، فإذا بيت قفار لم يعد فيه مجلس، فإذا هي من وراء ستريين، نظر ابن عباس إلى ما في الحجر، فوقع بصره على طنفسة على رحل، فمد الطنفسة وجلس عليها. فقالت عائشة من وراء الستر: يا ابن عباس، أخطأت السنة، دخلت بيتنا بغير إذننا، وجلست على متاعنا بغير إذننا. فقال ابن عباس: نحن أولى بالسنة منك ونحن علمناك السنة، وإنما بيتك الذي خلفك فيه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فخرجت منه ظالمة لنفسك، غاشة لدينك، عاتية على ربك، عاصية لرسول الله، فإذا رجعت إلى بيتك لم ندخله إلا بإذنك ولم نجلس على متاعك إلا بأمرك، إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بعث إليك يأمرك بالرحيل إلى المدينة وقلعة العرجة.

فقالت عائشة: رحم الله أمير المؤمنين، ذاك عمر بن الخطاب. فقال ابن عباس: هذا والله أمير المؤمنين، وإن تربدت فيه وجوه، ورغمت معاطس، أما والله لهو أمير المؤمنين، وأمس برسول الله رحماً، وأقرب قرابة، وأقدم سبقاً وأكثر علماً، وأعلى مناراً، وأكثر آثاراً من أبيك ومن عمر.

« صفحة ٧٦ »

فقالت عائشة: أبيت ذلك. فقال ابن عباس: أما والله، إن كان إباؤك - أي عدم قبولك - فيه لقصير المدة، عظيم التبعة، ظاهر الشوم، بين النكر، وما كان إباؤك فيه إلا حلب شاة حتى صرت ما تأمرين ولا تنهين ولا ترفعين ولا تضعين، وما كان مثلك إلا كمثل ابن الحضرمي ابن يحماني أخى بني أسد حيث يقول:

ما ذاك إهداء القصائد بيننا * شتم الصديق وكثرة الألقاب

حتى تركتهم كأن قلوبهم * في كل مجمعة طنين ذباب

سمعت عائشة فأرقات دمعها، وبدا عويلها، ثم قالت: أخرج والله عنكم، فما في الأرض بلد أبغض إلي من بلد تكونون فيه. فقال ابن عباس: فلم؟ والله ماذا بلاؤنا عندك، ولا يضعنا إليك،

إنا جعلناك للمؤمنين أما، وأنت بنت أم رومان، وجعلنا أباك صديقا وهو ابن أبي قحافة حامل
قصاع الودك - الخمر - لابن جذعان إلى أضيافه. فقالت: يا بن عباس تمنون علي برسول الله ؟

﴿ صفحة ٧٧ ﴾

فقال: ولم لا نمن عليك بمن لو كان منك قلامة منه مننتنا به ؟ ونحن لحمه ودمه ومنه، وما
أنت إلا حشية من حشايا تسع، خلفن بعده، لست بأبيضهن لونا، ولا بأحسنهن وجها، ولا
بأشجعهن عرقا، ولا بأنضرهن ورقا، ولا بأظهرهن أصلا، صرت تأمرين فتطاعين، وتدعين
فتجابين، وما مثلك إلا كما قال أخو بني فهر:

مننت على قومي فأبدوا عداوة * فقلت لهم: كفوا العداوة والشكرا

ففيه رضا من مثلكم لصديقكم * وأجى بكم أن تجمعوا البغي والكفرا

ثم نهض ابن عباس وأتى الإمام فأخبره بمقاتلتها، وما رد عليها، فقال (عليه السلام): " أما
إني كنت أعلم بك حيث بعثتك ". استمرت الحرب من الزوال إلى الغروب، وقيل استمرت ثلاثة
أيام، وعلى كل حال فقد بلغ عدد القتلى خمسة وعشرين ألف قتيل: ستة آلاف من أصحاب
الإمام، والباقيون من أصحاب الجمل، وأما الأيدي والأرجل التي قطعت فقد بلغ

﴿ صفحة ٧٨ ﴾

عدها أربعة عشر ألفا. وهكذا روت الأرض الدماء، وهكذا زهقت الأرواح، ولا تسأل عن
الجرحي ولا تسأل عن أرامل القتلى وبتاماهم. كل هذا لمصلحة من ؟ هذا والكلام طويل والحديث
ذو شجون، وفي هذا المقدار كفاية، فإنا لله وإنا إليه راجعون. نقلنا بعض وقائع هذه القصة من
كتاب " علي من المهد إلى اللحد " للسيد الخطيب القزويني مع الاختصار في العبارة، أما
المعنى فواحد، ومن كتاب نهج البلاغة، ومن بحار الأنوار وموسوعة إحقاق الحق. .. وروى
هذه الواقعة معظم علماء القوم ومحدثيهم وحفاظهم ومؤرخيهم بألفاظ مختلفة متقاربة، مفصلة
وموجزة، في مسانيدهم وكتبهم التاريخية، فراجعها في مظانها.

ملخص واقعة الجمل الصغرى

وبلفظ آخر موجز، أذكر ملخص معركة الجمل الصغرى والكبرى اقتطفت بعض بنودها من كتاب " النص والاجتهاد " المورد ٨٥ من ص ٢٩٨ إلى ص ٣١٦ :

« صفحة ٧٩ »

كانت عائشة من المؤلبيين على قتل عثمان، وربما كانت من أبرزهم، وهي أول من رفعت شعار الفتنة على قتله، وذلك بعد ما جاءته هي وحفصة تطالبانه بإرثهما من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وبعد ما ردهما ذلك الرد القاطع بقوله: إذا كان أبواكما قد ورثا فاطمة (عليها السلام) فإني أورثكما، وإنما افتريا على الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كذبا بقولهما: أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: " إننا معاشر الأنبياء لا نورث وإن ما تركناه صدقة، وحرما فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ميراثها من أبيها، وبعد خروجهما من داره رفعت عائشة علم الثورة على عثمان بقولها وقد أبرزت قميص رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): هذا قميص رسول الله لم يبيل وعثمان أبلى سنة رسول الله وبدل وغير، اقتلوا نعتلا فقد كفر. شبهته بأحد منافقي يهود المدينة حينذاك، وكان اسمه نعتل. كما أن عمرو بن العاص هيج الناس من جانب آخر. وبعد أن لقحت الفتنة وتيقنتها من إشعال نارها، وأن عثمان حوصر في داره بالمدينة خرجت وحفدتها إلى مكة، تنتظر النتيجة، وبعد اشتداد الفتنة ومقتل عثمان بسوء أعماله، وانتخب الإمام أمير المؤمنين للخلافة بصورة إجماعية، بعد

امتناعه

« صفحة ٨٠ »

الشديد وإصراره على عدم قبولها، قائلا لهم: " أنا أحذكم أرضي ما ترضون به، دعوني لكم وزير خير من أمير ". وبعد الضغط والالاحاح خاف من تفرق كلمتهم قبل البيعة له، فكان أول من بايعه وأصفق على يده طلحة والزبير، ثم انهالت الناس عليه بشكل لم يسبق له مثيل مبايعين طائعين غير مكرهين. وعندما سمعت عائشة بمقتل عثمان، قالت: لقد أراح الناس من شره. بعدها سألت: من انتخب من بعده ؟ فلما قيل لها: الإمام علي بن أبي طالب، صاحت من ساعتها بأعلى صوتها: لبت السماء انطبقت على الأرض، قتل عثمان مظلوما بعد أن استتابه. وجيشت الجيوش والناس على قتال الإمام أمير المؤمنين، ورفعت هذه المرة شعار الثأر بدم عثمان، وحصل من أعاتها على ذلك لبلوغ هدفها، وبذل لها الخيل والسلاح والرجال، وفي مقدمتهم بني أمية، وعلى رأسهم مروان بن الحكم. وبعد وصول طلحة والزبير إلى مكة والتحاقهما بالركب اشتد أزر المعارضة، وأسرعوا في تسيير الجيوش إلى البصرة، وكان في مقدمة قواده طلحة والزبير، وتبعهم مروان بن الحكم وسعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير وغيرهم، وكان ذلك في أواخر ربيع

« صفحة ٨١ »

الأول من سنة ٣٦ هـ، وفي العشرة الأخيرة بعد منتصف ربيع الثاني وصلت عائشة مع جيوشها البصرة. وفي يوم ٢٥ ربيع الثاني هجم عسكر عائشة على والي البصرة من قبل أمير المؤمنين (عثمان بن حنيف) فجرا، وكان يصلي بالناس صلاة الصبح في الجامع الأكبر، فقتلوا من عارضهم من المصلين، ثم أخذوه ومن كان من أعوانه، وكبلوهم بالحديد، وبعدها هجموا على دار الإمارة، وقتلوا حراسه، وكان عددهم سبعين حارسا بأمر من عائشة، قتلوهم صبيرا بيد الزبير وابنه المشؤوم عبد الله، وأرادوا قتل الوالي عثمان ابن حنيف غير أنه هددهم بأخيه سهل بن حنيف والي الإمام على المدينة حينذاك، فتركوه بعد أن نتفوا لحيته وشاربه وشعر رأسه وحتى أشفار عينيه وأوجعوه ضربا. وبعدها هجموا على بيوت أموالي المسلمين بقيادة الزبير، وكان على حراسه خمسين حارسا بعد أن قاوموا مقاومة شديدة وأبلوا بلاء حسنا قتلوهم،

واستولوا على الأموال، ونهبوا كل ما وجدوه. ولما سمع حكيم بن جبلة ما صنع جيش عائشة بعثمان بن

﴿ صفحة ٨٢ ﴾

حنيف وقتل حراس دار الإمارة وحراس بيوت أموال المسلمين ونهب ثرواته، خرج في ثلاثمائة رجل من عشيرته، عبد قيس، وكان سيدهم لمحاربة الغازين، فخرجت عائشة راكبة على جملها (عسكر) ومعها جيشها الضال، فحاربت القوم حربا ضروسا، وتجادلوا بالسيوف والرماح وأبلوا بلاء حسنا، حتى قتل حكيم بن جبلة ومن معه من عشيرته من عبد قيس جميعهم، وكانوا جميعا مؤمنين صالحين رحمهم الله. وكذلك حدثت بعدها معارك أخرى بين بعض المؤمنين وبين جيش عائشة في موقعين أو ثلاث أو أكثر من ذلك، حتى قتل أكثر من خمسمائة شخص من المؤمنين، كما قتل من جيش عائشة بقدرهم أو ربما أكثر، وكل هذه المعارك حدثت قبل وصول الإمام أمير المؤمنين وجيشه البصرة. وهذه الحرب هي: (واقعة الجمل الصغرى).

ملخص واقعة الجمل الكبرى

أما واقعة الجمل الكبرى فقد حدثت في يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الأولى من سنة ٣٦ هـ نفس السنة، عندما وصل

﴿ صفحة ٨٣ ﴾

الإمام البصرة بجيوشه، وحاول محاولات عديدة، وبذل جهودا جبارة في إخماد نار الفتنة، وحذرهم وأنذرهم وألقى عليهم الحجج، وكان آخر إنذار لهم أن أرسل المصحف الشريف على

رأس شاب مؤمن من عسكره يدعوهم إلى العمل بموجبه فكان جوابهم أن قطعوا يمينه وشماله وقتلوه أبشع قتلة، وما اكتفوا بهذا حتى رشقوا جيش الإمام (عليه السلام) بالسهام والنبال، وابتدأوا الحرب، فاشتدت، فكانت حرباً ضروساً، أكلت الرجال كما تأكل النار الهشيم. وبعد أن نصر الله تعالى جنده، بقيادة الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) وانكسار جيش أصحاب الجمل وهزيمتهم، أحصي من قتل من جيش عائشة فكانوا حوالي الثلاثة عشر ألفاً أو يزيدون، ومن بينهم طلحة. أما الزبير فقد قتل بوادي السباع بعد أن ترك ساحة المعركة راجعاً إلى المدينة بعد تذكيره الإمام حديث الرسول، وقد قتله ابن جرموز غيلة وجاء برأسه وسيفه وخاتمه إلى الإمام، فلما رآه وقص عليه كيفية قتله، قال الإمام: " سمعت حبيبي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: بشر قاتل ابن صفية بالنار ".

« صفحة ٨٤ »

وهكذا روت أرض البصرة بدماء المسلمين من كلا الطرفين، وأزهقت أرواحهم. ولا تسأل عن الأعضاء المقطعة والجرحى ولا تسأل عن أرامل القتلى وأيتامهم، كل هذا لمصلحة من؟! وهو موقف يطول مقامه، وكلام ذو شجون فإلى من نلتجئ وإلى من نشكو، فإنا لله وإنا إليه راجعون. روى هذه الواقعة معظم العلماء ورجال سير التاريخ، ومحدثيهم وحفاظهم بألفاظ مختلفة، لا تخرج عن معنى ما ذكرناه مفصلة وموجزة في مسانيدهم وتاريخهم، فراجع إن أردت الاستقصاء في مظانها. ذكر ابن الصباغ في الفصول المهمة ص ٨٦ (ط. النجف وطهران)، قال: نكر نقله الأخبار وأصحاب التاريخ أن عدد من قتل من أهل الجمل ستة عشر ألفاً وسبعمئة وتسعون رجلاً " ١٦ / ٧٩٠ " وكانت جملة ثلاثين ألفاً، فأتى القتل على أكثر من نصفهم، وأن عدد من قتل من أصحاب علي (عليه السلام) ألف وسبعون رجلاً " ١٠٧٠ " وكانت عدتهم عشرين ألفاً، وقيل غير ذلك والله العالم.

« صفحة ٨٥ »

وفي بعض الروايات أن المقتولين في هذه المعركة بلغ خمسة وعشرون ألفا عدا المجروحين والذين قطعت أيديهم وأرجلهم والتي بلغت أربعة عشر ألفا، منهم حوالي الثمانية عشر ألفا أو يزيدون من أصحاب الجمل، والباقي حوالي الستة آلاف أو يزيدون استشهدوا من جيش الإمام (عليه السلام)، فإننا لله وإنا إليه راجعون. وبعد رجوع عائشة إلى المدينة مدحورة عاتبها أم المؤمنين السيدة أم سلمة على عصيانها أمرها وخرجها إلى البصرة بأبيات مطلعها:

لو كان معتصما من زلة أحد * كانت لعائشة الرتبي على الناس
من زوجة لرسول الله فاضلة * وذكر آي من القرآن مدراس
وحكمة لم يكن إلا لهاجها * في الصدر تذهب عنها كل وسواس
وينزع الله من قوم عقولهم * حتى يمر الذي يقضي على الرأس
ويرحم الله أم المؤمنين لقد * تبدلت بي ابحاشا بايناس

﴿ صفحة ٨٦ ﴾

لما سمعت عائشة أبيات أم سلمة قالت لها: شمتيني يا أخت، فقالت أم سلمة: ولكن الفتنة إذا أقبلت غطت على البصيرة، وإذا أدبرت أبصرها العاقل والجاهل. لمصلحة من قتل هذا العدد من المسلمين وأهريق دمائهم ويتمت أطفالهم ورملت نساؤهم وتكلمت أمهاتهم وإخوانهم؟ فإننا لله وإنا إليه راجعون.

﴿ صفحة ٨٧ ﴾

معركة صفين

بعدا انتهت معركة الجمل في البصرة ووضعت الحرب أوزارها رجع الإمام (عليه السلام) إلى الكوفة مظفرا منصورا، وجعل الكوفة مقرا لحكمه، وعاصمة لإدارة شؤون المسلمين والدولة الإسلامية المترامية الأطراف. ولما استقر به المقام (عليه السلام)، بعث بشير بن عمرو بن محسن الأنصاري، وسعيد بن قيس الهمداني، وشبث بن ربعي التميمي إلى معاوية، فقال لهم: " انتوا هذا الرجل فادعوه إلى الطاعة والجماعة واحتجوا عليه وانظروا ما رأيه "، وكان ذلك أول ذي الحجة من سنة ٣٦ هـ، فلما دخل الوفد عليه وأبلغوه رسالة الإمام وجرت بينهم محادثات ومحادثات كثيرة وتبادل الكتب والرسائل، لم تجد معاوية تلك السفارة نفعا. وبعد أيام بعث الإمام (عليه السلام) وفدا آخر يضم عدي بن حاتم

﴿ صفحة ٨٨ ﴾

الطائي، ويزيد بن قيس الأرحبي، وشبث بن ربعي، وزياد بن خصفة بالسفارة إتماما للحجة وتوكيدا للسلام والموادعة، ولكن معاوية طغى وتجبر وصمم على الحرب والمواجهة المسلحة مع الإمام، وقد سبق أن بعث أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى معاوية كتابا بيد رجل من أصحابه إلى الشام، وبعد أن استلم معاوية الكتاب، وفشل سفارة الوفود جمع بعض أصحابه وأطلعهم على مضمون الكتاب، وأمرهم بإشاعة هذا الخبر وإذاعته بين الناس، أن عليا قتل عثمان، ومعاوية ولي دمه، فيجب الطلب بئثار عثمان ودمه، وأعانه على هذه الفكرة، عمرو بن العاص، واشترط على معاوية أنه إذا أعانه على حرب الإمام (عليه السلام) وأخرجوا مصر من تحت سلطة أمير المؤمنين (عليه السلام) يكون عمرو بن العاص واليا وأميرا على مصر، ولا يدفع لمعاوية خراجها لمدة عشر سنين، فقبل معاوية هذا الشرط فبايعه على ذلك، كما أن أهل الشام بايعوا معاوية على حرب أمير المؤمنين وخليفة المسلمين. فنهض معاوية بجيشه وأقبل إلى " صفين " وهي أرض واسعة كبيرة، مستعدا للقتال. وأقبل الإمام بجيشه حتى عسكر في ذلك المكان.

﴿ صفحة ٨٩ ﴾

وبعد أيام وصل أبو الأعور السلمي على مقدمة جيش معاوية إلى منطقة صفين، الكائنة بالقرب من مدينة الرقة في سوريا، ونزل منزلا مستويا واسعا، واستولوا على شريعة نهر الفرات، ووصل بعدها مالك الأشتر ومعه أربعة آلاف مقاتل، وهم مقدمة الجيش العلوي، فاصطدموا بجيش أبي الأعور السلمي وأزالوهم عن الفرات، بعدها وصل معاوية مع جيشه الجرار، فانسحب مالك الأشتر عنها، فاستولى معاوية بجيشه على شاطئ نهر الفرات، وصار الماء تحت سيطرتهم. ولما وصل الإمام (عليه السلام) ومعه مائة ألف مقاتل أو يزيدون، أمرهم الإمام أن ينزلوا ويضعوا أثقالهم، وتسرع بعضهم إلى ناحية معاوية واقتتلوا قتالا يسيرا، وتقدمت طائفة منهم إلى شاطئ الفرات ليستقوا فمنعهم جيش الشام. فأرسل الإمام (عليه السلام) صعصعة بن صوحان إلى معاوية يعاتبه على منعه الماء وجرى بينهم كلام طويل، وقد سبق أن نصح عمرو بن العاص معاوية، وأمره أن يفسح المجال لأصحاب الإمام كي يشربوا من الماء، ولكن غرور معاوية ولؤمه منعه من قبول النصيحة. وقال معاوية لأهل الشام: هذا أول الظفر، لا سقاني الله ولا أبا سفيان

﴿ صفحة ٩٠ ﴾

إن شربوا منه حتى يقتلوا بأجمعهم. فتباشر أهل الشام بالغلبة على عدوهم عن طريق حبس الماء عنهم ! فقام رجل همداني من جيش معاوية وقال: يا معاوية ! سبحان الله سبقتم القوم إلى الفرات وتمنعونهم الماء ؟ أما والله لو سبقكم عليه علي لسقاكم منه، أليس أعظم ما تتلون من القوم أن تمنعوهم الفرات ؟ ! أما تعلمون أن فيهم العبد والأمة والأجير والضعيف ومن لا ذنب له ؟ ! هذا والله أول الجور. فأغلظ له معاوية في الكلام، وقال لعمرو: أكفني صديقك، فأتاه عمرو وقابله بالكلام الخشن، فسار الهمداني في سواد الليل حتى لحق بجيش الإمام (عليه السلام). ومكث أصحاب الإمام (عليه السلام) يوما وليلة بغير ماء، واغتم الإمام (عليه السلام) (من عطش أصحابه، وقال عمرو بن العاص لمعاوية: إن عليا لا يموت عطشا، ومعه تسعون ألفا من أهل العراق أو يزيدون، وسيوفهم على عواتقهم، دعهم يشربون وتشرب. فقال معاوية:

لا والله، أو يموتوا عطشا كما مات عثمان. وخرج الإمام تلك الليلة يدور في عسكره، فسمع قائلًا يقول:

﴿ صفحة ٩١ ﴾

أيمنعنا القوم ماء الفرات * وفينا علي وفينا الهدى

وفينا الصلاة وفينا الصيام * وفينا المناجون تحت الدجى

ثم مر بآخر، فسمعه يقول:

أيمنعنا القوم ماء الفرات * وفينا الرماح وفينا الحجف

وفينا علي له صولة * إذا خوفوه الردى لم يخف

ونحن عداه لقينا الزبير * وطلحة خضنا غمار التلف

فما الناس أمس أسد العرين * وما بالناس اليوم شاة عجف

وألقى على الأشعث بن قيس، وكان حينذاك في جيش الإمام (عليه السلام)، رقعة فيها شعر، فلما قرأها هاجت فيه الحمية، فأخذها ودخل على الإمام (عليه السلام)، فقال: يا أمير المؤمنين ! أيمنعنا القوم ماء الفرات وأنت فينا والسيوف بأيدينا ؟ ! خل عنا وعن

﴿ صفحة ٩٢ ﴾

القوم، فوالله لا نرجع حتى نرده أو نموت. فقال الإمام (عليه السلام): " ذلك إليكم ". فرجع الأشعث فنأدى في الناس: من يريد الماء أو الموت، فميعاده موضع كذا، فإني ناهض. فخرج اثنا عشر ألف رجل من قبيلة كندة وغيرهم، واضعي سيوفهم على عواتقهم، وأقبل مالك الأشتر بخيله، فحملوا على الفرات حملة رجل واحد، وأخذت السيوف أهل الشام مأخذًا عظيمًا، فولوا الدبر، حتى غمست خيل الإمام سنانها في الفرات واستولوا على الشريعة وأزالوا أبا الأعور السلمي عنها، وقتل من قتل منهم، وغرق من غرق منهم، ومن خيولهم، وصارت الشريعة بأيدي جيش الإمام (عليه السلام) فقالوا: لا والله لا نسقيهم. فأرسل إليهم الإمام (عليه السلام)

أن خذوا حاجتكم من الماء، واخلوا بينهم وبين الماء، فإن الله قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم. فقال بعضهم للإمام (عليه السلام) امنعهم الماء كما منعوك. فقال (عليه السلام): " لا، خلوا بينهم وبينه، لا أفعل ما فعله الجاهلون ". هذا الفرق بين العدل والجور، وبين الحق والباطل. واستأذن معاوية وروده المشرعة، فأباح الإمام له ذلك،

﴿ صفحة ٩٣ ﴾

وكان جل همه المحافظة على السلام والأمان بقدر الإمكان، كما فعل بأصحاب الجمل في البصرة. أرسل الإمام (عليه السلام) الأشخاص إلى معاوية للتفاهم معه وحسم النزاع، وعدم إراقة وسفك الدماء، وإلقاء الحجة عليه، ولكن معاوية كان مصرا على الحرب والقتال. وأخيرا اصطدم العسكران واشتعلت نار الحرب، فزحف بعضهم على بعض، وتراموا بالنبال والحجارة حتى فنيت، ثم تطاعنوا بالرماح حتى تكسرت، ومشى بعضهم إلى بعض بالسيوف وعمد الحديد، فلم يسمع إلا وقع الحديد، وانكسفت الشمس، وأمطرت السماء دما، وحملت الأفواج على الأفواج، واستمر القتال متواصلا ستا وثلاثين ساعة، واقترب جيش الإمام من مقر قيادة الجيش الأموي، وطلب معاوية فرسا ليهرب، وكان أهل الشام ينادون: يا معشر العرب، الله الله في الحرمات من النساء والبنات ! الله الله في البقية ! لقد فنيت العرب ! واقترب الجيش العلوي من الفتح، ولاح لهم الظفر والنصر وتوجه الخطر إلى معاوية، ولم يستطع المقاومة إلا عن طريق الخدعة والمكر والحيلة، وبعد مشاورة عمرو بن العاص أمر

﴿ صفحة ٩٤ ﴾

معاوية أصحابه في جوف الليل أن يربطوا المصاحف على رؤوس الرماح، وما أن أصبح الصباح وإذا بأهل الشام رافعين خمسمائة مصحف على رؤوس رماحهم، وينادون بما تقدم من كلامهم، ويستعطفون أهل العراق، ويطلبون منهم ترك الحرب، وكان آخر كلامهم: هذا كتاب الله بيننا وبينكم. فقال الإمام (عليه السلام): " اللهم إنك تعلم أنهم ما الكتاب يريدون ". وقال: "

كلمة حق يراد بها باطل". ومن هذا المنطلق وهذه المكيدة، اختلف أصحاب الإمام (عليه السلام) (فطانفة منهم قالت: القتال حتى النصر. وطانفة منهم قالت: المحاكمة إلى الكتاب، ولا يحل لنا أن نقاتلهم وقد دعينا إلى حكم الله في الكتاب. فعند ذلك بطلت الحرب ووضعت أوزارها، وكان عدي بن حاتم الطائي يرى أن الفتح والنصر قد اقترب، ويطلب من الإمام الاستمرار في الحرب، وقام عمر بن الحمق الخزاعي وطلب من الإمام أن يعمل بما يرى، فقام الأشعث بن قيس وقابل هؤلاء بالكلام الخشن، وطلب كف القتال، - عليه لعنة الله - وهذا أول تمرد وخيانة فقال الإمام (عليه السلام): " إني أحق من

﴿ صفحة ٩٥ ﴾

أجاب إلى كتاب الله، ولكن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي سرح وابن أبي معيط وابن مسلمة ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وإني أعرف بهم منكم، صحبتهم صغاراً ورجالاً، فكانوا شر صغار وشر رجال. ويحكم أنها كلمة حق يراد بها الباطل، إنهم ما رفعوها ليعرفونها ويعملون بها، ولكنها الخديعة والوهن والمكيدة، أعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة فقد بلغ الحق مقطعه، ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا". واستمرت الحرب من يوم شروعا إلى صبيحة ليلة الهرير مائة وعشرة أيام، وبلغ عدد القتلى من أهل الشام تسعين ألفاً، ومن أهل العراق عشرين ألفاً، فكان مجموع القتلى مائة وعشرة آلاف قتيل، كما ذكر المسعودي. إنا لله وإنا إليه راجعون، لمصلحة من سفكت هذه الدماء؟! وجاء إلى الإمام من أصحابه زهاء عشرين ألفاً، بتحريض من الأشعث بن قيس رأس الفساد، وأول من جرأ القوم على التمرد والعصيان، مقتنعين في الحديد، حاملي سيوفهم على عواتقهم، وقد اسودت جباههم من كثرة السجود - وهم الذين صاروا بعد ذلك خوارج - فنادوا الإمام باسمه لا بإمرة المؤمنين،

﴿ صفحة ٩٦ ﴾

وقالوا: يا علي ! أجب القوم إلى كتاب الله إذا دعيت إليه، وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان، فوالله لنفعلنها إن لم تجبهم. فقال الإمام (عليه السلام): " ويحكم أنا أول من دعا إلى كتاب الله، وأول من أجاب. .. ولكني قد أعلمتكم أنهم قد كادوكم، وأنهم ليس بالعمل بالقرآن يريدون ". وكان مالك الأشر في تلك الساعة يقاتل ويتقدم لحظة بعد لحظة، وجيش معاوية ينسحب وينهزم وينقرض ساعة بعد ساعة، ولو أمهلوا الأشر ساعة واحدة لانتهت الحرب، بانهزام جيش معاوية. فصاح هؤلاء: يا علي ! ابعث إلى الأشر ليأتيك. فبعث الإمام رجلا إلى الأشر أن انتني. فقال الأشر: ليس هذه بالساعة التي ينبغي لك أن تزيلني فيها عن موقعي، إني رجوت الفتح فلا تعجلني. رجع الرسول فأخبر الإمام، وحمل الأشر على أهل الشام وظهرت علامات الفتح، ولكن القوم قالوا: يا علي ! ما نراك إلا أمرته بالقتال. فقال الإمام: " رأيتموني شاورت رسولي إليه ؟ أليس إنما كلمته على رؤوسكم علانية وأنتم تسمعون ؟ ".

﴿ صفحة ٩٧ ﴾

فقالوا: ابعث إليه، وإلا فوالله اعتزلناك. فذهب الرسول مرة ثانية إلى الأشر وأخبر بتمرد القوم واختلافهم، وما كان الأشر يحب مغادرة جبهة القتال في تلك الساعة الحرجة، فقال له الرسول: أتحب أنك ظفرت ههنا، وإمامك بمكانه الذي هو فيه يفرج عنه ويسلم إلى عدوه ؟ ! فقال الأشر: سبحان الله ! لا والله، لا أحب ذلك. فقال الرسول: فإنهم حلفوا عليه لترسلن إلى الأشر فليأتيك، أو لنقتلنك بأسيفنا كما قتلنا عثمان، أو لنسلمنك إلى عدوك. أقبل الأشر مغضبا وصاح بالقوم: يا أهل الذل والوهن، أحين علوتم القوم وظنوا أنكم قاهروهم رفعوا المصاحف يدعوكم إلى ما فيها. .. فلا تجيبوهم، أمهلوني فإني قد أحسست بالفتح. قالوا: لا نمهلك. وجرى كلام طويل بينهما حتى آل الأمر إلى السب، والشتم والصياح، فصاح الإمام بهم: " كفوا ". فصاح القوم أن أمير المؤمنين قد رضي المحاكمة بحكم القرآن !

﴿ صفحة ٩٨ ﴾

وكان الإمام ساكتا لا يتكلم طيلة هذه الفترة، ولما سكتوا، قال: " أيها الناس ! إن أمري لم يزل معكم على ما أحب إلى أن أخذت منكم الحرب. .. إلا إني أمس أمير المؤمنين، فأصبحت اليوم مأمورا، وكنت ناهيا فأصبحت منهيها، وقد أحببتم البقاء وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون ". فاضطربت أقوال الرجال، وقام الرؤساء وتكلموا بما تكلموا من الموافقة على رأي الإمام ورفض المحاكمة، ولكن المهرجين نشروا هذه الكلمة: إن أمير المؤمنين رضي التحكيم. ودخل الأشعث بن قيس، واستأذن من الإمام أن يكون رسولا إلى معاوية من قبله، فأذن له. فجاء الأشعث ودخل على معاوية وقال: لأي شئ رفعتم هذه المصاحف ؟ قال معاوية: إلى ما أمر الله به فيها، فابعثوا رجلا منكم ترضون به، وبعث رجلا منا، ونأخذ عليهما أن يعملما بما في كتاب الله ولا يعدوانه، ثم نتبع ما اتفقنا عليه. فرجع الأشعث، فأقبل جماعة من أصحاب الإمام، وجماعة أصحاب معاوية، واجتمعوا بين الصفيين، وتذاكروا حول انتخاب الحكم، فانتخب أهل الشام عمرو بن العاص، وانتخب

﴿ صفحة ٩٩ ﴾

الأشعث ونظراؤه أبا موسى الأشعري، فرفض الإمام أبا موسى ولم يرض به، لأنه كان عثماني الهوى، وهو الذي خذل أصحاب الإمام من الخروج لحرب عائشة في حرب الجمل بالبصرة، وكان واليا للإمام على الكوفة، وذلك على أثر رسالة أرسلتها عائشة إليه، تأمره بخذلان الناس عن نصره الإمام، حتى جاء مالك الأشتر وعزله عن إمرة الكوفة، وطرده شر طردة كما سبق ذكره في حرب الجمل، فذهب إلى الشام واحتمى بمعاوية. وبعد رفض الإمام أبا موسى، قام الأشعث بن قيس وجماعته، وقالوا: لا نرضى إلا به. فلم يوافق الإمام وانتخب ابن عباس ليكون حكما من قبله، فلم يرض الأشعث، بحجة أن ابن عباس من أقاربه، فاختار الإمام مالك الأشتر فلم يرضوا به. جادل الأشعث الإمام بكل وقاحة وصلافة، ورد عليه جميع مقترحاته، وبقي مصرا على انتخابه الأشعري، فقال الإمام: " فاصنعوا ما شئتم ". وكان يصفق بيديه ويقول: " يا عجا أأعصى ويطاع معاوية ؟ ! ". ثم أرسلوا إلى أبي موسى الأشعري، وكان بالشام، فجاء إلى معسكر الإمام، فجاء الأشتر وشرح نفسه ليكون هو الحكم،

﴿ صفحة ١٠٠ ﴾

وجاء الأحنف بن قيس وحذر الإمام من الأشعري وعجزه وضعف نفسه، ورشح نفسه للحكم، فوافق الإمام على ذلك، ولكن الغوغائية اتبعوا رأي الأشعث وقالوا: لا يكون إلا أبو موسى الأشعري. وكتبوا كتاب الموادة وهذه صورته: هذا ما تقاضى عليه علي أمير المؤمنين ومعاوية بن أبي سفيان. .. فلما قرأ معاوية الكتاب قال: بنس الرجل أنا إن أقررت أنه أمير المؤمنين ثم قاتلته. أعدوا الكتاب إلى الإمام فأخبروه، فأمر بمحو كلمة " أمير المؤمنين " فنهاه الأحنف عن ذلك، فقال الأشعث: امح هذا الاسم، فقال الإمام: " إن هذا اليوم كيوم الحديبية، حين كتب الكتاب عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): هذا ما صالح عليه محمد رسول الله، وسهيل بن عمرو. .. فقال سهيل: لو أعلم أنك رسول الله لم أقاتلك ولم أخالفك، إني إذا لظالم لك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله. فقال لي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): يا علي ! إني لرسول الله، وأنا محمد بن عبد الله ولن يمحو عني الرسالة كتابي لهم، إن ذلك الكتاب أنا كتبته بيننا وبين المشركين، واليوم أكتبه إلى أبنائهم

﴿ صفحة ١٠١ ﴾

كما كان رسول الله كتبه إلى آبنائهم شبيها ومثلا". فقال عمرو بن العاص: سبحان الله ! أتشبهنا بالكفار ونحن مسلمون ؟ فقال الإمام: " يا بن النابغة ! ومتى لم تكن للكافرين وليا وللمسلمين عدوا ؟ ". ولما أرادوا تنظيم الكتاب سألوا الإمام: أتقر أنهم مسلمون مؤمنون ؟ فقال الإمام: " ما أقر لمعاوية ولا لأصحابه أنهم مؤمنون ولا مسلمون، ولكن يكتب معاوية ما شاء، ويقر بما

شاء لنفسه ولأصحابه، ويسمي نفسه بما شاء وأصحابه ". فكتبوا الكتاب وكان في أعلاه ختم الإمام، وفي أسفله خاتم معاوية، وشهد الشهود عليها، وخرج الأشعث بالكتاب، وقرأه على أهل العراق، فهاج الناس، وظهرت الفتنة والانقسام والتفرقة، وتكونت فرقة الخوارج وصاحوا: لا حكم إلا لله، فأين قتلتنا يا أشعث ؟ وحمل بعضهم على الأشعث ليقتله. وأقبلوا إلى الإمام مستنكرين الحكم وطلبوا من الإمام نقض العهد والرجوع إلى الحرب فقال الإمام: " ويحكم أبعد الرضى

« صفحة ١٠٢ »

والميثاق والعهد نرجع ؟ ! أليس الله تعالى قد قال: (أوفوا بالعقود) (١)، وقال: (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) (٢)، فبرأ الخوارج من الإمام وبرأ منهم. وأقبل الجيش يستأذنون الإمام بالهجوم على معاوية، فقال الإمام (عليه السلام): " لو كان هذا قبل المعاهدة وسطر الصحيفة لأزلتهم عن عسكرهم ". وكان من التحكيم أنه توجه الأشعري للاجتماع بابن العاص للمحاكمة، فحذره الناس من مكيدة ابن العاص وغدره وسوء سوابقه، حتى يتخذ التدابير اللازمة، ويكون على بصيرة من أمره، ولكن كان كل هذا بلا جدوى، بل كانت النتيجة معكوسة. واجتمع الحكمان في المكان المعد لهما فقال عمرو: تكلم يا أبا موسى، فقال الأشعري: بل أنت تكلم. فقال عمرو:

(١) المائدة / ١ .

(٢) النحل / ٩١ .

﴿ صفحة ١٠٣ ﴾

ما كنت لأفعل وأقدم نفسي قبلك، ولك حقوق كلها واجبة. فتكلم أبو موسى، فقال عمرو: إن للكلام أولا وآخرا، ومتى تنازعنا الكلام لم نبلغ آخره حتى ننسى أوله، فأجعل ما كان من كلام بيننا في كتاب يصير إليه أمرنا؟ فقال أبو موسى: اكتب، ودعا عمرو بصحيفة وكتب. وبعد سؤال وجواب، وخداع وتزوير، قال الأشعري: قد علمت أن أهل العراق لا يحبون معاوية أبدا، وأن أهل الشام لا يحبون عليا أبدا، فهلم نخلعهما، ونستخلف عبد الله بن عمر بن الخطاب. فقال عمرو: أيفعل ذلك ابن عمر؟ قال: نعم إذا حمله الناس على فعل ذلك فعل. فقال عمرو: فهل لك في سعد بن أبي وقاص؟ قال: لا فذكر ابن العاص جماعة، والأشعري لا يرضى بهم، وكل هذا كان مراوغة من ابن العاص ليستغفله، فقال عمرو: قم واخطب. فقال الأشعري: قم أنت واخطب. فامتنع ابن العاص فقام الأشعري وخرج من الخيمة، وقد اجتمع أربعمائة رجل من أصحاب الإمام، ومثلهم من أصحاب معاوية، فقال الأشعري في خطبته: أيها الناس! إنا نظرنا في أمرنا فرأينا أقرب ما يحضرنا من الأمن والصلاح ولم الشعث وحقن

﴿ صفحة ١٠٤ ﴾

الدماء وجمع الألفة خلعنا عليا ومعاوية، وقد خلعت عليا كما خلعت عمامتي هذه وخلع عمامته المشؤومة. ثم قام عمرو وقال: "أيها الناس! إن أبا موسى عبد الله بن قيس قد خلع عليا وأخرجه من هذا الأمر الذي يطلب، وهو أعلم به، ألا وإني خلعت عليا وأثبت معاوية علي وعليك. فقال الأشعري: كذب عمرو لم نستخلف معاوية، ولكننا خلعنا معاوية وعليا. فقال عمرو: بل كذب عبد الله بن قيس، قد خلع عليا ولم أخلع معاوية. فقال الأشعري: مالك لا وفقك

الله ؟ ! غدرت وفجرت، إنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث. فقال عمرو:
بل إياك يلعن الله، كذبت وغدرت، إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا. فضرب عمرو أبا موسى
فسقط، وضرب شريح عمروا بالسوط، فركب الأشعري راحلته وتوجه إلى مكة وحلف أن لا
ينظر في وجه علي.
إلى هنا انتهت مهزلة التحكيم وملابساتها، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

﴿ صفحة ١٠٥ ﴾

واقعة النهروان

لما تقرر التحكيم غادر الإمام (عليه السلام) صفيين وقصد الكوفة، وبقي فيها ينتظر إنهاء مدة
الهدنة، ليعيد الحرب والقتال، وبعد فشل التحكيم انشقت أمة من جيش الإمام وتمردت عليه،
وعزت فشلها إلى قبول الإمام بالتحكيم، فتكونت فرقة " الخوارج " كما أخبر به النبي (صلى
الله عليه وآله وسلم) وسماهم " المارقون " فقد مرقوا من الدين كما مرق السهم من الرمية.
وأول من انفصل من جيش الإمام بعد وصولهم الكوفة أربعة آلاف مقاتل من أصحابه، وهم
المعروفون بالنسك والعبادة، وأصحاب الجباه السود من السجود، وتكتلوا كتلة واحدة ضد
الإمام، فخرجوا من الكوفة لإعلان المخالفة والانشقاق، وأطلقوا شعارهم المعروف " لا حكم إلا
لله ولا طاعة لمن عصى الله ". وانضم إليهم ممن يرى رأيهم من أهل الكوفة والبصرة

﴿ صفحة ١٠٦ ﴾

وغيرها ثمانية آلاف آخرون، فصاروا اثني عشر ألفاً، وساروا قاصدين الحر وراء، وتجمعوا فيها وجعلوها مقراً لهم. وحروراء قرية قرب الكوفة على ميلين منها. ونادى مناديتهم: إن أمير القتال شبت بن ربعي، وأمير الصلاة عبد الله بن الكوا، والأمر شورى بعد الفتح، والبيعة لله على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. دخل زرعة الطائي وحرقوق بن زهير - ذو الثدية - على الإمام، فقالا: لا حكم إلا لله. فقال الإمام (عليه السلام): " كلمة حق يراد بها الباطل ". فقال ذو الثدية: تب من خطيئتك، وراجع عن قصتك، واخرج بنا إلى عدونا نقاتلهم حتى نلقى ربنا. فقال (عليه السلام): " قد أردتكم على ذلك فعصيتموني، وقد كتبنا بيننا وبين القوم كتاباً وشروطاً، وأعطينا عليهم عهوداً ومواثيق، وقد قال الله تعالى: (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم) " (١). فقال ذو الثدية: ذلك ذنب ينبغي أن تتوب عنه.

(١) النحل / ٩١ .

﴿ صفحة ١٠٧ ﴾

فقال (عليه السلام): " ما هو ذنب ولكنه عجز من الرأي وضعف في العقل وقد تقدم فنهيتكم عنه ". فقال ابن الكوا: الآن صح عندنا أنك لست بإمام، ولو كنت إماماً لما رجعت. فقال (عليه السلام): " ويلكم قد رجع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عام الحديبية عن قتال أهل مكة ". فقال زرعة: أما والله لنن لم تتب من تحكيمك الرجال لأقتلنك أطلب بذلك وجه الله ورضوانه. فقال (عليه السلام): " بؤسا لك، ما أشقاك، كأني بك قتيلاً، تسفي عليه الرياح ". قال زرعة: وددت أنه كان ذلك. وبعث الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) صعصعة بن صوحان مع زياد ابن النضر وعبد الله بن العباس إلى القوم فلم يرتدعوا، فدعا الإمام صعصعة وقال له: " بأي القوم رأيهم أشد طاعة ؟ " فقال صعصعة: بيزيد بن قيس الأرحبي. فركب الإمام (عليه

السلام) إلى حروراء، حتى وصل إلى خيمة يزيد بن قيس فصلى هناك ركعتين ثم خرج، فاتكأ على قوسه، وأقبل

﴿ صفحة ١٠٨ ﴾

على المنشقين فقال: " هذا مقام من فلج فيه فلج إلى يوم القيامة ". ثم تكلم وناشدهم فقال لهم: " ألا تعلمون أن هولاء القوم لما رفعوا المصاحب قلت لكم: إن هذه مكيدة ووهن، ولو أنهم قصدوا إلى حكم المصاحف لأتوني وسألوني التحكيم ؟ ". قالوا: صدقت. قال: " أفتعلمون أن أحدا أكره إلى التحكيم مني ؟ ". قالوا: لا. قال: " فهل تعلمون أنكم استكروهموني على ذلك حتى أجبتمكم، فاسترطت أن حكمهما نافذ ما حكما بحكم الله، فمتى خالفاه فأنا وأنتم من ذلك براء، وأنتم تعلمون أن حكم الله لا يعدوني ؟ ". فقال ابن الكواء: حكمت في دين الله برأينا، ونحن مقرون بأنا كفرنا، ولكن الآن تائبون، فأقرر بما أقررنا به، وتب ننهض معك إلى الشام. فقال (عليه السلام): " أما تعلمون أن الله قد أمر بالتحكيم في شقاق بين الرجل وامرأته، فقال سبحانه: (فابعثوا حكما من أهله

﴿ صفحة ١٠٩ ﴾

وحكما من أهلها) (١) وفي صيد - كأرنب - يساوي نصف درهم فقال: (يحكم به ذوا عدل منكم) (٢). فقالوا له: فإن عمرو بن العاص لما أبى أن تقول في كتابك: هذا ما كتبه عبد الله علي أمير المؤمنين، محوت اسمك من الخلافة وكتبت: علي بن أبي طالب، فقد خلعت نفسك. فقال (عليه السلام): " لي أسوة برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حين أبى عليه سهيل بن عمرو أن يكتب: هذا ما كتبه محمد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وسهيل بن عمرو، وقال: لو أقررت بأنك رسول الله ما خالفتك، ولكني أقدمك لفضلك، فاكذب محمد بن عبد الله، فقال لي: يا علي ! امح كلمة رسول الله، فقلت: يا رسول الله ! لا تشجعني نفسي على محو اسمك من النبوة. فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): دلني عليه. فمحاها بيده الشريفة، ثم قال:

اكتب محمد بن عبد الله. ثم تبسم إلي وقال: إنك لتسام مثلها فتعطي". فقالوا: إنا أذنبنا ذنبا عظيما بالتحكيم، وقد تبنا، فتب إلى الله

(١) النساء / ٣٥ .

(٢) المائدة / ٩٥ .

﴿ صفحة ١١٠ ﴾

كما تبنا، نعد لك. فقال (عليه السلام): " استغفر الله من كل ذنب ". فرجع معه منهم ستة آلاف، فلما استقروا بالكوفة أشاعوا أن عليا رجع عن التحكيم ورآه ضلالا. وقالوا: إنما ينتظر أن يسمن الكراع ويحى المال، ثم ينهض بنا إلى الشام. فأتى الأشعث بن قيس عليا (عليه السلام) فقال: يا أمير المؤمنين ! إن الناس قد تحدثوا أنك رأيت الحكومة ضلالا، والإقامة عليها كفرًا. فقام الإمام (عليه السلام) فخطب وقال: " من زعم أنني رجعت عن الحكمين فقد كذب، ومن رآها ضلال فقد ضل ". فخرجت الخوارج من المسجد، ثم توجهت إلى النهروان " وهم الستة آلاف الذين رجعوا معه من حروراء إلى الكوفة " والتحقوا بجماعتهم، والنهروان قريبة من حروراء، استعدادا لاشتعال نار الحرب ضد جيش الإمام. وقد وقعت لهم في طريقهم إلى النهروان، مفارقات عجيبة وقضايا مبكية ومضحكة، وشر البلية ما يضحك. فمنها: أنهم وجدوا في طريقهم مسلما ونصرانيا، فقتلوا المسلم لأنه عندهم كافر إذ كان على خلاف معتقدتهم،

﴿ صفحة ١١١ ﴾

واستوصوا بالنصراني وقالوا: احفظوا ذمة نبيكم. ووثب رجل على رطبة سقطت من نخلة فوضعها في فمه فصاحوا به، حتى لفظها تورعا. ورأى أحدهم خنزيرا فضربه وقتله، فقالوا:

هذا فساد في الأرض وأنكروا عليه قتل الخنزير. وساموا رجلا نصرانيا بنخلة له فقالوا: ما كنا لناخذها إلا بالثمن. فقال النصراني: وا عجباه أتقتلون مثل عبد الله بن خباب ولا تقبلون منا نخلة إلا بالثمن؟ ! أما العبد الصالح عبد الله بن خباب الأزدي، فإنه كان راكبا على حمار ومعه زوجته وهي حامل، فسألوه عدة أسئلة، منها: فما تقول في علي بعد التحكيم؟ قال: إن عليا أعلم وأشد توقيا على دينه، وأنفذ بصيرة. قالوا: إنك تتبع الهوى، إنما تتبع الرجال على أسمانهم. ثم قريوه على شاطئ النهر فأضجعوه وذبحوه، ثم عمدوا إلى امرأته فشقوا بطنها وهي حامل. وصل القوم إلى النهروان والتحق بهم المنشقون الذين كانوا بحروراء وتوجه الإمام (عليه السلام) بجيشه إليهم، فقال (عليه السلام): " يا بن

« صفحة ١١٢ »

عباس ! امض إلى هؤلاء القوم، فانظر ما هم عليه، ولماذا اجتمعوا؟ فلما وصل إليهم، قالوا: ويحك يا بن عباس، كفرت بربك كما كفر صاحبك علي بن أبي طالب. وخرج خطيبهم عتاب بن الأعرور الثعلبي فسأله ابن عباس: من بنى الإسلام؟ أجابه عتاب: الله ورسوله. فقال ابن عباس: النبي أحكم أموره وبين حدوده أم لا؟ فقال عتاب: بلى. فقال ابن عباس: فالنبي بقي في دار الإسلام أم ارتحل؟ فقال عتاب: بل ارتحل. فقال ابن عباس: فأمر الشرع ارتحلت معه أم بقيت؟ فقال عتاب: بل بقيت بعده. فقال ابن عباس: فهل قام أحد بعده بعمارة ما بناه؟ فقال عتاب: نعم، الذرية والصحابة. فقال ابن عباس: فعمروها أو خربوها؟ فقال عتاب: بل عمروها. فقال ابن عباس: فالآن هي معمورة أم خراب؟ فقال عتاب: بل خراب

« صفحة ١١٣ »

فقال ابن عباس: خربها ذريته أم أمته؟ فقال عتاب: بل أمته. فقال ابن عباس: أنت من الذرية أو من الأمة؟ فقال عتاب: من الأمة. فقال ابن عباس: أنت من الأمة وخربت دار الإسلام، فكيف ترجو الجنة؟ فقالوا: ليخرج إلينا علي بنفسه لنسمع كلامه، عسى أن يزول ما بأنفسنا إذا

سمعناه. فرجع ابن عباس فأخبر الإمام بما حصل، فركب (عليه السلام) في جماعة، ومضى إليهم، فركب ابن الكواء في جماعة منهم، فلما التقوا، قال الإمام (عليه السلام): "يا ابن الكواء! إن الكلام كثير، فأبرز إلي من أصحابك لأكلمك". فقال: أنا آمن من سيفك؟ قال (عليه السلام): "نعم". فخرج إليه في عشرة من أصحابه، فقال لهم (عليه السلام): "ألم أقل لكم إن أهل الشام إنما خدعوكم بها - الحكومة ورفع المصاحف وغير ذلك - فإن الحرب قد عضتكم فذروني أناجزهم فأبيتم؟ ألم أرد نصب ابن عمي - ابن عباس - وقتلت: إنه لا يخذع فأبيتم

﴿ صفحة ١١٤ ﴾

إلا أبا موسى الأشعري. وقتلت: رضينا به حكما، فأجبتكم كارها؟ ولو وجدت في ذلك الوقت أعوانا غيركم لما أجبتكم، وشرطت على الحكيمين بحضوركم، أن يحكما بما أنزل الله من فاتحته إلى خاتمته، والسنة والجماعة، وأنهما إن لم يفعلا فلا طاعة لهما علي، كان ذلك أو لم يكن؟". قال ابن الكواء: صدقت، كان هذا كله، فلم لا نرجع الآن إلى حرب القوم؟ قال الإمام (عليه السلام): "حتى تنقضي المدة التي بيننا وبينهم". قال ابن الكواء: وأنت مجمع على ذلك؟ قال (عليه السلام): "نعم، لا يسعني غيره". فعاد ابن الكواء والعشرة الذين معه إلى أصحاب الإمام (عليه السلام) راجعين عن دين الخوارج، وتفرق الباقيون وهم يقولون: لا حكم إلا لله. وأمروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي، وذا الثدية، وعسكروا بالنهروان، وخرج الإمام (عليه السلام) حتى بقي على فرسخين منهم، وكاتبهم وراسلهم، فلم يرتدعوا، فأمر الإمام ابن عباس أن يركب إليهم، وقال: "سلهم ما الذي نقموه؟ وأنا ردك فلا تخف منهم".

﴿ صفحة ١١٥ ﴾

فلما جاءهم ابن عباس قال: ما الذي نقمتم من أمير المؤمنين؟ قالوا: نقمنا أشياء لو كان حاضرا لكفرناه بها. والإمام يسمع كلامهم، فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين قد سمعت كلامهم

وأنت أحق بالجواب. فتقدم (عليه السلام) وقال: "أيها الناس، أنا علي بن أبي طالب، فتكلموا بما نعمتم علي". قالوا: نعمنا عليك أولاً أنا قاتلنا بين يديك بالبصرة، فلما أظفرك الله بهم أبحتنا ما في عسكرهم ومنعتنا النساء والذرية، فكيف حل لنا ما في العسكر ولم يحل لنا النساء؟ فقال (عليه السلام): "يا هؤلاء! إن أهل البصرة قاتلونا بالقتال، فلما ظفرتهم بهم قسمتم سلب من قاتلكم، ومنعتكم من النساء والذرية، فإن النساء لم يقاتلن والذرية ولدوا على الفطرة، ولم ينكثوا ولا ذنب لهم، ولقد رأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من على المشركين، فلا تعجبوا إن مننت على المسلمين، فلم أسب نساءهم ولا ذريتهم". قالوا: نعمنا عليك يوم صفين كونك محوت اسمك من إمرة المؤمنين فإذا لم تكن أميرنا، ولست أميراً لنا.

﴿ صفحة ١١٦ ﴾

قال (عليه السلام): "يا هؤلاء! إنما اقتديت برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حين صالح سهيل بن عمرو". قالوا: نعمنا عليك أنك قلت للحكمين: انظروا كتاب الله، فإن كنت أفضل من معاوية فأثبتاني في الخلافة، فإذا كنت شاكاً في نفسك، فنحن فيك أشد وأعظم شكاً. قال (عليه السلام): "إنما أردت بذلك النصفة - الإنصاف - فإني لو قلت: احكما لي دون معاوية لم يرض ولم يقبل، ولو قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لنصارى نجران لما قدموا عليه: "تعالوا نبتهل فأجعل لعنة الله عليكم، لم يرضوا، ولكن أنصفهم من نفسه، فكذاك فعلت أنا، ولم أعلم بما أراد عمرو بن العاص من خديعة أبي موسى". قالوا: إنا نعمنا عليك إنك حكمت حكماً في حق هو لك. فقال (عليه السلام): "إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حكم سعد بن معاذ في بني قريظة ولو شاء لم يفعل، وأنا اقتديت به، فهل بقي عندكم شيء؟". فسكتوا وصاح جماعة منهم من كل جانب: التوبة التوبة يا أمير المؤمنين. فأعطى الإمام راية أمان مع أبي أيوب

﴿ صفحة ١١٧ ﴾

الأنصاري، فناداهم أبو أيوب: من جاء إلى هذه الراية أو خرج من الجماعة فهو آمن. فرجع منهم ثمانية آلاف، فأمر الإمام (عليه السلام) المستأمنين بالاعتزال. وبقي أربعة آلاف منهم مستعدين للقتال، فخطبهم الإمام (عليه السلام) ووعظهم فلم يرتدعوا، وصاح مناديتهم: دعوا مخاطبة علي وأصحابه، وبادروا إلى الجنة، وصاحوا: إلى الجنة. وتقدم حرقوص ذو الثدي، وعبد الله بن وهب وقالوا: ما نريد بقتالنا إياك إلا وجه الله والدار الآخرة. فقال (عليه السلام): (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا)(١). فكان أول من خرج أخنس بن العزير الطائي، فقتله الإمام (عليه السلام) وخرج عبد الله بن وهب، ومالك بن الوضاح، وبرز الإمام إليهم وقتل الوضاح وضربه ضربة على رأس الحرقوص وقتله، وأمر أصحابه بالهجوم على العدو.

(١) الكهف / ١٠٣ - ١٠٤.

﴿ صفحة ١١٨ ﴾

وعندما استعرت الحرب والتهبت نيرانها، صاح عبد الله بن راسب: يا بن أبي طالب، والله لا نبرح من هذه المعركة حتى نأتي على أنفسنا أو نأتي عليك، فابرز إلي وأبرز إليك، وذر الناس جانبا، فلما سمع الإمام كلامه تبسم وقال: "قاتله الله من رجل ما أقل حياءه، أما إنه ليعلم أنني لحليف السيف، وخدين الرمح، ولكنه قد ينس من الحياة، وإنه ليطمع طمعا كاذبا". ثم حمل عليه الإمام فضربه وقتله وألحقه بأصحابه في النار. واختلط الجيشان فلم تكن إلا ساعة حتى قتلوا بأجمعهم وكانوا أربعة آلاف، ولم ينج منهم إلا تسعة رجال، فرجلان هربا إلى خراسان إلى أرض سجستان وبها نسلهما، ورجلان صارا إلى اليمن وفيها نسلهما، وهم الأباضية، ولا يزالون، ورجلان إلى بلاد الجزيرة إلى موضع يعرف بالسن والبواريج نواحي تكريت في شمال العراق، بعد مدينة سامراء، ومن نسلهم [صدام التكريتي]، والباقون تفرقوا في المغرب

العربي، ولا يزال نسلهم بين ليبيا والجزائر. وقتل من أصحاب الإمام (عليه السلام) تسعة بعدد من سلم من الخوارج، وكان (عليه السلام) قد أخبر بذلك قبل بدء المعركة.

﴿ صفحة ١١٩ ﴾

وللمزيد راجع ما ذكره الحفاظ في كتبهم وتواريخهم منهم: ابن الصباغ المالكي في " الفصول المهمة " ط. النجف من ص ١٠٨ - ١١١. المسعودي في " مروج الذهب " ج ٢ من ص ٤٠٢ إلى ٤١١ ط. إيران قم. ابن عساكر في " تاريخ دمشق " ج ٣ في ترجمة أمير المؤمنين ٧ من ص ١٩١ - ٢٠٠. الطبري في " تاريخ الأمم والملوك " ج ٤، ص ٥٢ - ٦٧، ط. بيروت. العلامة الأميني في غديره والعلامة المجلسي في بحاره. العلامة السيد محسن الأمين في " رحاب أئمة أهل البيت " ج ٢، ص ٢٢٢ - ٢٣٧، ط. دار التعارف - بيروت. وغيرهم من الصحاح والمسانيد المعنية بهذا التاريخ. وبهذه الوجازة اختتم ما عناه الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) من الطامعين، والحاسدين، والحاقدين الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا. إنا لله وإنا إليه راجعون، والعاقبة للمتقين.

﴿ صفحة ١٢٠ ﴾

خلاصة البحث لم يزل الصراع التاريخي منذ اليوم الأول من الخلقة قائما بين الحق والباطل، وبين النور والظلام، وبين الخير والشر، وقد تمثل بمعسكرين: معسكر الرحمن، ومعسكر الشيطان، وكان المعسكر الأول يجسده آدم نبي الله، والمعسكر الثاني يتمثل بإبليس عدو الله، ولا يزال هذا الصراع قائم بين الإيمان والكفر، ولكل من هذين المعسكرين أتباع على مر العصور والأحقاب، حتى جاء دور " عمرو العلي هاشم " و " شيبه الحمد عبد المطلب " الذي يمثل الإيمان، والقيم الإنسانية والفضائل ومكارم الأخلاق، يقابله " عبد شمس وأميه " الذي يمثل معسكر الكفر والإلحاد والشرك. ثم جاء دور خاتم الأنبياء والمرسلين محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ليواجهه كفار قريش وفراعنة عصرهم، وليصمد أمام عدوانهم وكان على رأسهم أبو

جهل، وصخر بن حرب أبو سفيان وغيرهم من الذين أثاروا الحروب المرة تلو الأخرى ضد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في بدر، واحد، والأحزاب، وحنين وغيرها وكان النصر حليف الإيمان، وقد اشتد الاصطدام واحتدم بعد رحيل الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) والتحاقه بالرفيق الأعلى. بشكل وبآخر سيطر حكام الانقلاب في يوم السقيفة، وأخذوا بأيديهم زمام المبادرة، وتحملت الأمة من جراء ذلك ما تحملت

« صفحة ١٢١ »

من ظلم وجور وتعسف لا سيما أهل البيت وأتباعهم وقد بلغ السيل الزبي، حتى قام المسلمون في أمصارهم بالثورة على الفساد الذي تفشى في دست الحكم ووصل ذروته في عهد عثمان بن عفان نتيجة سوء إدارته وسوء تصرف عماله حتى أدى ذلك إلى مقتله، عند ذلك أجمعت الأمة على تصحيح مسيرتها ورفع الجور عنها، والبيعة للإمام علي أمير المؤمنين خليفة لرسول رب العالمين. إلا أن الحاقدين والحاسدين والطامعين، نكثوا البيعة وأثاروا الحروب ضد الإمام علي، بعد ما يأسوا من الحصول على أغراضهم الدنيوية من مناصب وأموال التي كانوا يتمتعون بها أيام خلافة عثمان، بالإضافة إلى خوفهم من عدل علي (عليه السلام) لمحاسبتهم " من أين لك هذا؟ ". فزحفت جيوشهم من مكة إلى البصرة بزعامة عائشة بنت أبي بكر، وطلحة بن عبيدة، والزبير بن العوام، وبموازرة بني أمية، وفي مقدمتهم مروان بن الحكم، وعبد بن عامر عامل عثمان على مكة، ويعلى بن منبه، بعد سرقة ما في بيت مال المسلمين بمكة من أموال، فكان ما كان من حربي الجمل الصغرى والكبرى في البصرة، كما سجلها التاريخ، وراح ضحيتها زهاء أربع وعشرين ألفاً من الفريقين سوى ما ترك من المعوقين والأرامل واليتامى، في حرب الناكثين. ثم جاء دور القاسطين المتمثل بمعاوية بن أبي سفيان، وموازرة عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزبيد بن أبيه ومروان بن الحكم وغيرهم، من الذين أعماهم الحقد الدفين، والحسد القاتل،

« صفحة ١٢٢ »

والطمع الجشع، والذين غرتهم الدنيا وزبرجها، فاتخذوا مال الله دولا، وعباده خولا وأثاروا الفتنة وأشعلوا نار الحرب في صفين والتي راح ضحيتها حوالي المائة وعشرين ألفا من الفريقين، كل هذه الأرواح التي زهقت والدماء التي سفكت لمصلحة من ؟ فإننا لله وإنا إليه راجعون. أعود فأقول وبعد أن لاح بوادر النصر لجيوش الحق بقيادة الإمام علي في صفين، وبيان الانكسار في جيوش المنافقين من أهل الشام في ساحة المعركة، تفتقت ذهنية ابن النابغة عمرو بن العاص، في مكيدة رفع المصاحف، لزرع الخلاف في جيش الإمام علي (عليه السلام) - انطلاقا من سياسة فرق تسد - ولقحت المكيدة وتزعمتها المنافق المرتد الأشعث بن قيس الكندي، وتبعته قبيلته من كندة وخلفائها وبعض من انخدع بهذه المكيدة، الشيطانية ومن يكره الحرب ويريد السلامة والعافية في التحكيم. وقد حاول الإمام علي (عليه السلام) إقناعهم على أن ما فعله ابن النابغة وابن أبي سفيان. ليس إلا خدعة، وأنها كلمة حق يراد بها باطل، وما هم من أهل القرآن ولا يعملون به، إلا أنهم جعلوا أصابعهم في آذانهم وأصروا واستكبروا استكبارا، ولم يصدع منهم لأمر الإمام (عليه السلام) أحد، ولم يكتفوا بذلك بل حدى بهم الأمر إلى تكفيره وتهديده بالقتل إن لم يقبل التحكيم، وبعد مهزلة التحكيم وفشله ورجوع جيش الإمام إلى الكوفة، خرج من المتمردین زهاء أربعة آلاف منهم، ومرقوا من الدين مروق السهم من الرمية، واتخذوا حروراء مقرا لهم ثم زحفوا بعدها إلى النهروان،

﴿ صفحة ١٢٣ ﴾

ووقعت المعركة المعروفة بحرب الخوارج في النهروان، راح ضحيتها زهاء أربعة آلاف من المخدوعين. وبعد الفراغ من حرب الخوارج ورجوع الإمام (عليه السلام) إلى عاصمة حكمه الكوفة أعلن عن تجهيز الجيش مرة ثانية للزحف وخوض لهوات الحرب مجددا مع معاوية وأهل الشام بعد الانتهاء من فترة الهدنة، ليسترجع الحق الشرعي المغصوب إلى أهله، وإعادة الفنة الباغية إلى رشدها، إلا أن يد الخوارج الأثيمة تصدت للإمام علي (عليه السلام) واغتالته في محراب مسجد الكوفة، وهو يؤدي صلاة الفجر، فضربه المجرم عبد الرحمن بن ملجم

بالسيف المسموم على رأسه الشريف، فنأدى الإمام نداءه الخالد " فزت ورب الكعبة " وذلك في اليوم التاسع عشر من شهر الصيام المبارك سنة ٤٠ للهجرة النبوية الشريفة، فإننا لله وإنا إليه راجعون. وتمخضت بعد ذلك حوادث رهيبة وخت الأواء لمعاوية وابن النابغة فزحف بجيوش أهل الشام على الكوفة، بعد أن مهد معاوية طريقه بواسطة المنتفعين من عملائه بمكانه ومؤامراته في تخذيل أصحاب الإمام أبي محمد الحسن (عليه السلام) سبط الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وتقاعسهم عن نصرته، حتى اضطر إلى مهادنة معاوية ورجوعه إلى مدينة جده (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولم يطل به المقام حتى خطط معاوية لاغتيال الإمام الحسن (عليه السلام) بواسطة عملائه الأوغاد وفس إليه السم الناقع بواسطة زوجته الضالمة " جعدة بنت الأشعث "، زعيم حركة الانقلاب والعدر على الإمام علي (عليه السلام) في صفين. ولم يقف الصراع عند

« صفحة ١٢٤ »

هذا الحد بل تعداه إلى تصدي قوى النفاق والإحاد بزعامة الماجن يزيد الخزي والعار بعد هلاك معاوية فعاث في الأرض الفساد، وأول عمل إجرامي قام به، في أخذ البيعة له من الإمام السبط أبي عبد الله الحسين (عليه السلام) بيعة ذل وهوان، غير أن الإمام أبي ذلك، وقال نحن بيت النبوة، ومعدن الرسالة ونفوس أبية، ويزيد فاسق فاجر شارب الخمر وقاتل النفس المحرمة ومثلي لا يبايع مثله، فخرج من مدينة جده خائفا يترقب، وتوجه إلى مكة بطريقه إلى العراق، بدعوة من أهل الكوفة بآلاف الرسائل التي وردت عليه تدعوه للبيعة له، إلا أن مشينة الله التي لا راد لها أن يراه قتيلا مضرجا بدمه هو وأهل بيته وأصحابه في أرض كربلاء يوم الطفوف، ويرى عائلته، وثقل رسول الله سبانيا يقادون إلى الدعي ابن الدعي في الكوفة ثم إلى الشام، بعد حرب غير متكافئة بين جيش الضلال الذي ضم ثلاثين ألف مقاتل لمحاربة سبط الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته وأصحابه البررة الذين لم يبلغوا السبعين مقاتلا، هذا ما كان بعض أجزامه في السنة الأولى من تسلطه على الحكم. وفي السنة الثانية، جهز يزيد الخزي والعار، جيشا جرارا بقيادة المجرم مسلم بن عقبة لغزو مدينة الرسول، في " يوم الحرة " فأباد

المدينة وقتل النسل والحرث وهتك الأعراض، وقتل الأنفس البرينة من الأطفال والشيوخ والنساء، وأباحها لجنده ثلاثة أيام، في جرائم يندى لها جبين الإنسانية، وصار سبة الدهر والعار. وفي السنة الثالثة من حكمه، وهي الأخيرة هجم بجيشه على

﴿ صفحة ١٢٥ ﴾

بيت الله الحرام الآمن وأحرق الكعبة وهدمها " بالمنجنيق "، وفعل الأفاعيل وهتك الحرمات، خاصة حرمة بيت الله الحرام الذي جعله الله آمنا لمن قصده منذ أن بناه إبراهيم الخليل (عليه السلام) والذي كان موضع تقديس الناس وحتى المشركين منهم في العصور الجاهلية الغابرة فضلا عن المسلمين، وبذلك وصل الصراع الدائر بين الحق والباطل وبين الكفر والإيمان إلى أوجه، وفي أبشع صورة، منذ أن أججها عبد شمس وأمية، ضد هاشم، وعبد المطلب. فإنا لله وإنا إليه راجعون. وما أروع ما وصف العلامة كاشف الغطاء رحمه الله في نهضة الإمام الحسين (عليه السلام) حيث قال: " لولا شهادة أبي عبد الله الحسين صلوات الله عليه لكانت الشريعة أموية، ولعادت الملة الحنيفية يزيدية، فحقا أقول: إن الإسلام علوي [النشأة] والتشيع حسيني [البقاء]. أخي المسلم: لا يزال هذا الصراع مستمرا وسيبقى إلى أن يظهر الحجة ابن الحسن عجل الله فرجه ليملئها عدلا وقسطا بعد أن ملئت ظلما وجورا وعليك أن تعرف نفسك من أي الفريقين أنت؟ وفي أي المعسكرين مقامك. هذا ما لزم عرضه موجزا ومنه سبحانه وتعالى استمد العون والتسديد فإنه ولي التوفيق وإنه أرحم الراحمين..

العبد المنيب حسين الشاكري

دار الهجرة - قم المقدسة

الفتاح من محرم الحرام ١٤١٩